الرعشة الأولى
و
هؤلاء الأدباء

انطباعاتي عن رواد الثقافة

الدكتور : عبدالحميد ابراهيم

الطبعة الاولى بغداد ـ ١٩٨٦.





١٩٨٦



طباعة ونشر
دار الشؤون الثقافية العامة «آفاق عربية»

تعنون جميع المراسلات
لرئيس مجلس ادارة دار الشؤون الثقافية العامة

العنوان
العراق ـ بغداد اعظمية
ص. ب. ٤٠٣٢ ـ تلكس ٢١٤١٣ هاتف ٤٤٣٦٠٤٤

مقدمة



ان ما أقدمه في هذا الكتاب شيءٌ طريف . . . . فهو عبارة عن احساس قارئ أمام مجموعة أعمال أثارته ، فبدا له أن يكتب عن هذا الاحساس ، انه الرعشة الأولى والتي هي أشبه بالحب الأول ، ويظل مهما تعاقبت السنون منزويا – كذكرى طيبة – في ركن قصي للنفس ، ويلجأ اليه الانسان بعد فراغه من الكد ومخالطة الناس ، فيحس أن الحرارة لاتزال فيه .

أذكر الليالي الطوال التي كنت أسهر فيها مع كتب طه حسين ، لاأزال أحتفظ بتلك النسخ ذات الصفحات المتهرئة ، والتي تحمل أثر تشنجات أصابعي وحرارة أنفاسي وقرقعة أسناني . . وكأنها الخطابات التي كان يبعثها المحب الى حبه الأول . . يحاول فيها أن يجسد كل انفعالاته الهادرة . . . وأن يحيل الحرف – لو استطاع – الى كائن يحتضن الحبيبة ، فلعلها تحس بحرارة اللوعة ووقدة العاطفة .

أين ذهب كل هذا ؟ ومن الجاني ؟ يقول أراجون :

الزمان الذي يمضي يمضي . . . يمضي
بحبله يعقد العقد
حول اولئك الذين يتعانقون
ولايرونه يحوم حولهم
ويدفع جباههم بالتهكم
ويطفيءُ عيونهم المضيئة
الزمان الذي يمضي يمضي يمضي
بحبله يعقد العقد

يحلو لي أحيانا – ومن باب الطرافة أيضا – أن أقترب من كتاب هزني في صباي يالله ! ، ما أبعد الفرق وكأنني أمام كتابين مختلفين تمام الاختلاف ، مع أن الحروف هي هي والمؤلف هو هو !

ان لقائي الأول كان يصاحبه جَيَشان هادر ، وكأنني هذا الفتي المسكين في عبرات المنفلوطي ، والذي يسكن الأدوار العليا بعيدا عن الناس ، يعاني الحب والخيبة والداء ، وكأن جمل المنفلوطي التي يرسلها له سلوى وعزاء ، موجهة لي شخصياً .

ولكن . . . مالكل هذا يتغير الآن ؟ ومالي حين أمسك بهذا الكتاب أمسكه بأصابع ناترة وبعواطف باردة ، لاتحول الحروف الي عالم يضج بالحركة . . فما لفتي المنفلوطي المسكين يتحول الي كومة عظام يستحق الرثاء ؟ وما للشاعر سير انودي برجراك يرغي في الليل البهيم تحت شرفة الحبيبة ؟ أما يخشي من انبرد أن يفري عظامه ، أو من رجال الشرطة أن يقوده إلى القسم[1] !

ان الشعراء – كفاوست – يضحون بكل شيءٌ من أجل اللحظة الأولي ، لحظة النقاء والصدق

(١) القسم : كلمة يطلقها أهل القطر المصري على (مركز الشرطة) . والعرب – في كل أقطارهم – لايسمونه هذه التسمية

والاخلاص . . يقول صلاح عبدالصبور :

يامن يدل خطوتي علي طريق الضحكة البريئة
يامن يدل خطوتي علي طريق الدمعة البريئة
لك الســـــــلام
لك الســـــــلام

أعطيك ما أعطتني الدنيا من التجريب والمهارة
لقاء يوم واحد من البكارة

ماذا يحدث للمرء حين يلتقي بحبه الاول ، الذي كان يثيره ويغيظه بعد ان تقدّمت به السن ، وحطت فوق سطح قلبه طبقات مما يسمونه العادة . . . أو مايسمونه التجريب والحكمة ؟

يخيل لي أنه يغمض عينيه ليفر مما أمامه . . . انه شيْ يختلف عن حبه الأول . . حين كانت ابنة الجيران هذه تتواري خلف نافذة . . . تلوح ثم تختفي . . قد يبدو منها طرف ثوب أو حركة ذراع . . . ترد علي الاشارة المتلهفة بنظرة تلخص العالم كله تحت هدبيها .

الآن فقط . . فهمت الحاح بروست على عودة هذا الزمن المفقود . . انه يراه الحياة الخصبه . . . إنه يستجمع كل قواه ليستعيد هذا الزمن ، الذي يهب فينتشل الانسان من واقع بارد وجاف . . وسرعان ما ينداح وكأنه فقاعة صغيرة تتراقص فوق كوب من الشراب ليفسح الطريق امام البعث الجديد . . بعث الذكريات والزمن المفقود . . . فغلاف كتاب – يقولها بروست – قرأه الانسان من قبل ، يحتفظ في حروف عنوانه بأشعة القمر ، التي كانت تضيْ الكون ذات مساء صيفي بعيد .

ومن هنا فهذه الأحاسيس تحاول أن تبتعث عالما قديما ، عاشه انسان من قبل ، وأن تتبع الرعشة الأولى عند استقبال عمل أدبي ، كان يمثل النسمة الخفيفة المنعشة ، في جو خانق قاهر .

حقا . . . ان هذه الرعشة عاطفية ، تحفها هالة من التقديس والضوء ، ولكنها صادقة وبريئة يثيرها العمل الأدبي وحده . . . ودون ان تفسدها ألفة لصاحبها . . أو لقاء مسبق . . . . أو مزاملة في عمل . . . أو إتفاق في شلة[٢] .

كانت نقية لم تخيب ظني وقد لايستطاع تعليلها ، ولكنها أكثر صدقا مما يستطاع تعليله ، وكنت –لأمرما– أشعر بنفور من كاتب لا ينفع في زحزحته صورته الجميلة المنشورة ، ولاطنطنة الصحافة عنه ، ولأمر ماكنت أحس بمشاركتي لكاتب ، وكأن روحينا قد التقيا من قبل في عالم الغيب ، قبل أن تقسم الأرزاق وتجسد الصور . . وقد ظل هذا الاحساس معي ، وكان صادقا على الرغم من أن مصدره شيْ لم أدركه . ان في عالم الجمال أشياء خفية وعصية ، وان في داخل المرء قوى ، قد نسميها

(٢) شلّة : من العامي المصري ، تعني جماعة الأصدقاء .

حدسا أو الهاما أو صوفية أو اتصالا ، وقد نسميها غموضا أو هواجس ، أو سديمية أو هلامية ، ولكنها موجودة وستنشأ حولها أسماء جديدة ويثور لغط كثير.

(عجباً) ! . . . التقيت ببعض هؤلاء الكتاب ، بعد ان انداحت الرعشة الأولى ، فاذا بالصورة تختلف ، يقينا لو أنني رأيتهم من قبل لاختلف الحال . . . ولكان لهذا أثره في الأحاسيس البكر ، أيعني هذا أن ثمة انفصالا بين العمل وصاحبه ؟ وأن العمل الأدبي مخلوق كائن بنفسه ؟ ! ويشاء القدر أن يظهر على يد فلان من الناس ، في لحظة الهام غير عادية يعود المرء بعدها الى الحالة الأولى ، التي كان يتعامل بها الناس . . كما أن الله يختار أن يكون هذا المولود الجديد ، الذي سيغير الدنيا من نسل هذه المرأة الحمقاء مثلا في لحظة مخاض يتوقف الكون عن حركته ليصغي الى تأوهاتها وتشنجاتها . . كان روكانتان في رواية سارتر يستمع الى ذلك اللحن في أزمته ، فنقله من عالم الغثيان والتخبط الى عالم الجمال والسمو ، – يالله ! . انه يتساءل ، أيكون هذا اللحن من ابداع ذلك الأمريكي السمين الذي يسكن العمارة الفخمة ، ويتجشأ البيرة ، ويعد الدراهم ويحسب مكاسبه .

ماعلينا . . فانني حاولت في أحاسيسي تلك أن ألج عالم الكبار ، وأن ألمس البؤرة الأساسية التي تصدر اليها ومنها كل الاشعاعات . . . تخففت من التفصيلات والجزئيات لاعن تقليل لأهميتها ، وانما لتكون الحركة أخف وأسرع ، وحتى لا ينفلت مني الاتجاه المباشر الى لب الأشياء ، والاقتراب الى نفسية هؤلاء الكتاب .

ولكن . . يقينا . . لم أكتب عن كاتب الا بعد أن قرأت معظم كتبه . . وتمثلتها حتى أهتدي الى روحه وأسراره .

* * *

ان هذا النوع من الكتابة الذي يبدو طريفا . . يحتاج الى مجهود كبير تمثل القراءة جزءا منه ، وتمثل المعايشة والمعاودة والاجترار والنفاذ الى السرائر الجزء الأكبر والمهم .

لأنها كتابة لاتبغي الحرص على التاريخ للشخصية ، وجمع كل مايدور حولها ، وذكر أعمالها ، ثم ضم ذلك في «أصنبورة»[٣] يطالب القارئ باستخلاص مايمكنه منها .

بل تبغي – بعد ان تتمثل كل ماسبق – تجسيد الشخصية ورسم ملامحها الرئيسة ، وتصوير لوازمها الكتابية ، وبعثها حية أمام القارئ .

إنها تبدو للقارئ شيئا ظريفا ، ولكنها تمثل للمؤلف جهدا عنيفا ، حاول فيه أن يكون كل فصل صورة حية للشخصية .

إن طه حسين قد اندفع يوقع على ربابة ، وينشد أسرار اللغة العربية ، وكأنه الجاحظ تبوح له

---

(٣) أصنبورة : لم أجدها في معجم ، ولو انه كتبها بالفرنسية أو الانكليزية لفهمتها زاده الله علماً بلغة العرب .

اللغة بمكنونها ، وتنطق على لسانه بإعجازها . ومن خلال وسائلها التقليدية التي تحول اللغة الى نغم ، كأنه وقع أخفاف الابل تضرب ساهمة في صحراء مبسوطة ، وتجاوبها أصداء الجنادب وهواتف الجان .

والعقاد كشيخ قبيلة يحمي الحمى ، ويدافع عن الأعراض ، ويذب عن الأحساب . وجميع أفرادها مؤمنون به منقادون لزعامته . وهو بتحليلاته الواسعة ، وقدراته المتعددة ، وقامته الفارعة ، وصوته الذي يندفع كشلال لا يقبل المقاومة ، هو بكل هذا يتسلل الى نفوس مُريديه فيحيلهم الى حبات تنتظم في سلكه .

وتوفيق الحكيم كأنه نبي من أنبياء الشرق ، يسمع أصواتا تناديه ، وتكلفه حمل الرسالة ينتظر الوحي ، حتى اذا تقمصه ، ظل يعرق ويرفض كأنه مصاب بالحمي ، فاذا ما انجلي تَكشَّف الموقف عن خلق فني معجز .

ويحيى حقي . . عين سحرية تعد وتحصي ، وتلتقط داخلها كل شيء ، ولكنها عين من بلاد الشرق فهي مطعمة بالأصداف ، منمنمة ، محبوكة .

وسلامة موسى . . يذكرني بقصة البعوضة التي تسللت الى منخر الفيل وظلت تقرصه وتدفعه الى أن يحث السير ، ويترك بلادته تباطؤه . . حقا انها حركته وقربته من الهدف ، ولكن بعد أن تصبب عرقا وأصابه اللهاث والزُغطّة[٤] .

والمازني . . يظل يَتَقَلَّبُ ويدور ويدور ، ويرسل الحكايات والطرائف والنكت ويحاور المشاهد ، وربما يدخل معه في قافية[٥] ، ان همه الأول أن يرضي القارئ وان ينتزع ضحكاته ، ولكن ما لهذا الطريف الخفيف حين يخلو بنفسه ، يرسل الحسرات تلو الحسرات . ان الدنيا في نظره لا تساوي التراب الذي يمشي عليه ، ملعون أبوها . . الكل باطل و (قبض الريح)[٦] .

وخالد محمد خالد . . كأنه عراف يقف على قلل الجبال ، مغبر الجبين مشقوق الجيب ويظل يصيح ويصيح : ياقوم اني لكم نذير بين يدي عذاب شديد . . ياقوم . . إن الخطر قادم ها هو . . هل ترونه . . هل تحسونه ؟ انه يتحرك وراء الأكمه وخلف الاجمه . . هذا هو . . الطوفان . . انتبهوا . . استيقظوا . . (من هنا نبدأ) لكي لاتعيشوا مع الوهم . . ولكي لا تحرثوا في البحر .

* * *

وخيل اليّ أن الطرافة تبلغ حدها ، لو أنني استطعت أن أحاكي كل كاتب . . من هنا جاءت

(٤) الزُغطة : عامية مصرية لا يعرفها العرب .
تعني ترجيع الشهقة العالية واسمها باللغة العربية (الفُوَاق) .

(٥) تعبير مصري عامي : يعني قول الطرف في موضوع واحد .

(٦) قبض الريح : اسم كتاب لابراهيم عبدالقادر المازني يرحمه الله .

هذه المحاولة . . التي لونت كل فصل بلون خاص ، يتناسب وعادات الكاتب ولوازمه وطرائفه الفنية .

ففي الحديث عن طه حسين استخدمت أسلوبا كلاسيكيا ، يعتني باللفظ ويظل وراءه ، يبني منه بناء يكاد يلمسه باليد ، ويتحسس فيه الخزوم والوحدات الزخرفية المتشابهة . ويقيم عالما جماليا يشف عن الذوق العربي ، الذي يميل الى المحسوسات ، ويستطعم الموسيقي الحريفة ذات النغمات الرنانة والتقاسيم الصداحة .

وفي الحديث عن العقاد . . تغير الأسلوب فاذا به يهتم بالتعريفات الذهنية والغوص وراء المعاني ، وطرح الفكرة على الفكرة . مع التغلغل في النفسية والكشف عن الدوافع والتنفير عن مصدر واحد ، يفض مغاليق الشخصية ويفسر سلوكها .

وبدأ الحديث عن توفيق الحكيم بموقف حواري ، حاولت فيه أن أقترب الى عالم هذا الفنان ، وأن أستخدم الوسيلة التي كانت شغله الشاغل ، والتي جد في ادخالها الى الأدب العربي ، فكان الحديث عنه صورة مشاكلة لفنه ،اعتماداً على الحوار ومعانقة للفن ، حواراً مع العصا واستنطاقا للحمار ، وسخرية لاذعة تتخفى في ثوب من البساطة ، ولكنها تنقر العظام وتهز الوجدان .

وطعمنا الاسلوب في الحديث عن يحيي حقي ، بأصداف العاج وزركشناه (بالدانتيلا) الرقيقة ويقطع (الكانفاه) ذات الألوان الأصيلة ، ولكنها ترتقي بالروح الى معارج السمو ومدارج الكمال .

وأخذت المحاولة عند الحديث عن سلامة موسى ، تجد في أن تكون اللغة بعيدة عن الزخرفة ، وقريبة من وظيفتها الاجتماعية ، التي تعمل على نقل الفكرة وايصالها للقارئ . . . مقلدين طريقته في ترجمته للشخصيات ، اذ كان يقف عند المعالم الرئيسة في محاولة لحفز الهمم ، وتحريك المجتمع ، كان يشبه نفسه – كما فعل سقراط – بأنه ضرب من الذباب النشيط ، أرسله الله على هذه الأمة التي هي بمثابة جواد ثقيل الحركة ، لابد له من حافز

وكان الحديث عن المازني مليئا بالحكايات والنوادر وخفة الدم . . قريبا من طريقته الصحفية ، التي لاتكدّ الذهن ولا تبعث الملل .

وقد حاول الأسلوب – عند الحديث عن خالد محمد خالد – ان يمتلئ بالانفعال وبروح الخطابة وهز الوجدان . . مليئا بعلامات الاستفهام والتعجب . . كثير النقط والاقتباسات يدفع القارئ الى أن يهب من فوره ، واقف زاعقا بالخائفين والمتقاعسين .

* * *

حاولت في كل هذا ان أقلد أسلوبهم ، ولكن بلاشك كنت دونهم ، فهل يتساوى الأصل والصورة ، انها – أي الصورة – تتم عن التقليد والمبالغة .

كانت فترتهم حبلي بالأفكار ، وكان كل منهم كأنه موكل بأمر لابد أن يبلغه ، فكنت ترى الحماسة والصراع وكسب الأصدقاء ، كانت فترة معارك وحياة ، طه حسين يهز المجتمع ، والعقاد يغير المناهج الفكرية ، وتوفيق الحكيم يحفر مجرى جديدا ، وسلامه موسى (يناوش)[7] العادات والتقاليد .

آه . . بردت الاشياء ، وفقد كل شيئ حماسته ، ورانت على الكون اللزوجة والعفن ، لم تعد للأمور جدتها ، ولا سرها الحيوي ، الذي يدفع الي النقاش والتخاصم .

ولكن أين المخرج ؟ . . ان منصور باهي في ميرامار نجيب محفوظ ، أراد أن يتخلص من محنته ، فاندفع الي جريمة قتل . . ولكن الأقدار أبت عليه حتى هذا الشرف ، فانتحرت الضحية قبل أن يصل اليها .

فلماذا يبقى بعد ذلك ؟ لا يبقى الا انتظار ملك الموت . . فربما كانت في معانقته رعشة كرعشة السمكة حين تمسكها الانشوطة . تذكرنا في الأقل بأننا كنا أحياء وأصبحنا أمواتا ، فالذكرى وإن أعقبها عدم ، خير من حياة . . يتساوي فيها كل شيئ .

---

(١) يُناوِش : عامية ، في كل قطر عربي لها معنى يغاير ما يفهمه أبناء العرب في القطر الآخر وهي هنا تعني ، مُهاجم هجوماً خفيفاً ، ويطلق طلقات متقطعة وفي العراق معناها : يوصل الشيئ الى غيره .

أصلها العربي (التناوُش) : التناوُل . قال تعالى « . . وأنى لهم التناوش من مكان بعيد» وبذلك يكون عرب العراق اقرب في دلالة اللفظ الى الأصل .

طه حسين

وسر اللغة العربية



لست أذكر متى كان لقائي الأول مع عالمه الفني ؟ ولكن الذي لاأزال أذكره كل الذكرى أنه ما إن بدأ حتى أخذ يتوالى كتيار ملح ينغرز فيه المرء . . بشيءٍ من الاستسلام كثير وبشيءٍ من الاستمتاع أكثر ، لقد قرأت في «الأيام» أن طه حسين الصغير كان يلجأ الى السحر ، ليحصل على عصا حسن البصري ، يضرب بها الأرض فتنفجر له عن تسعة نفر من الجن مسخرين لخدمته ، ومسيرين تحت إمرته ، يحملون الأثقال ويقتلعون الجبال كما يقول[1] ، أما أنا - وهكذا كنت أحدث نفسي - فقد وجدتها ، ولكنها لم تكن عصا سحرية أضرب بها الأرض ، ولم يكن في خدمتي تسعة نفر من الجن أقوياء أشداء ، . . بل كانت مئات من الورق أملاها طه حسين على صاحبه ، أو على غلامه الأسود ، عليها نقوش وكتابة ، تفعل في نفسي اكثر مما يفعله أصحاب حسن البصري ، كنت أختلي بكتبه في حجرة مقفلة وإذا بي أُحمَل الى عالم آخر ، يختلف عما حولي كل الاختلاف ، وكأن ثمة زرايدار ، واذا بي أسبح في جو من تناغم اللفظ وتآلف القول ، لست أذكر عدد المرات التي قرأت فيه «الأيام» ، ولكن أذكر كل الذكرى تحركات ذلك الصغير ، إنه يرقب كباره من بعيد ، يسجل صغائرهم ويسخر من تفاهتهم ، وكأنه أكبر من أكابرهم ، يفهم ما يعرفون ومالايعرفون ، انه يتقلب بين الاب والجد والأخ الكبير وسيدنا والعريف ، يتدبر نزعاتهم ، ويتفهم نزواتهم من حيث لا يعلمون ، ولكن كلما تقدمتُ في الكتاب صفحة ، أطلّت علي صورته ، وكأنه يخرج لسانه دهاء ورثاء لكل من حوله .

وكم كان يهزني هزا ، ذلك الجهد الذي تنؤ به الجبال ، من صغير شاحب اللون ، مهمل الزي ، تقتحمه العين اقتحاما ، في عباءته القذرة ، وطاقيته التي استحال بياضها ، الى سواد قاتم ، انه يكافح وحيدا تحت سماء صماء ، ويحاول أن ينتزع نفسه من بين فرث ودم . . . . يالله . . ما أعجبه ! هل هو جن قد انبعث من بين صفحات ألف ليلة وليلة يفعل العجائب والغرائب ، أو هو عفريت من تلك العفاريت التي تنهض حين يهجع الناس ، فتأتي من الحيل والأفانين ما يثير الدهشة والرهبة ، وما يوقظ الفزع والجزع ، لك الله أيها الصغير العفريت كيف استطعت ان تنتقل من طور الى طور ، من طور كنت فيه كالثمامه ، تنقلك اختك الى زاوية في ركن صغير ، فتلقيك على حصير قد بسط عليه لحاف ، أو كنت فيه كشيءٍ تجذبك أمك من احدى يديك ، حتى تنتهي بك الى زاوية من زوايا المطبخ ، فتلقيك القاء وتنصرف الى عملها ، واخوتك يضطربون ويصطخبون ، لا يحفلون بك ولايلتفتون اليك كنت تعيش على العسل الأسود أياما ، وعلى خبز الأزهريين وما فيه من ضروب القش وفنون الحشرات شهورا ، لاتشكو حين تعود الى أبيك حتى لاتكون مثل أختك الصغيرة بَكّاء شكّاء . كيف انتقلت الي هذا الطور الجديد ، الذي تخاطب فيه ابنتك الصغيرة ، وقد بدت في صورة

(١) الأيام : ١٠١/١

مختلفة كل الاختلاف ، عن هذا الأب الصغير الذي كانت تقتحمه العين اقتحاما ؟ وكيف أمكن لعواطفك التي كانت حبيسة نفسك سجينة ذاتك ، لانها لاتستطيع ان تفيض ، أو لانها تحتفظ بكبريائها عن أن تفيض ، فبقيت حبيسة النفس ، كيف أمكن لها في ذلك الطور الجديد أن تفيض عذوبة وسيولة ، واذا بك تخاطب ابنتك – في آخر الكتاب – بهذا الأسلوب الغنائي الشفاف ، الذي يحمل عواطف قد طال عليها الكتمان ، فتريد ان تنبثق كما ينبثق شعاع القمر ، وان تمتد كما يمتد نور الضحى ، الذي تحبه كثيرا وتكرر ذكره في كتبك . ان هذا الاسلوب في آخر ذلك الكتاب الذي يحكي عن ايامك الأولى ، يختلف عن كل الكتاب ، لقد اختفت نبرة القسوة والعتاب ونغمة الحرمان والعذاب ، واذا به يمتلئ بعواطف الأسرة الجديدة التي كونتها كمحارب أصيل ، يطارد القبح بكل صورة . لتخاطب ابنتك ماشئت ، وليندفع ذلك الفيض من الحنان الذي كنت تتكتمه طيلة الكتاب ما أمكن له أن يندفع ، ولكن ماهذا الملاك الفيض من الحنان الذي كنت تتكتمه طيلة الكتاب ما أمكن له أن يندفع ، ولكن ماهذا الملاك القائم فوق سرير الصغيرة ، والذي بدلك من البؤس نعيما ومن اليأس أملا ، ومن الفقر غنى ، ومن الشقاء سعادة وصفوا . يقولون إنها زوجك وانك لتريد هذا ما في ذلك ريب ولكن مالي كلما عاودت القراءة – وما اكثر ما عاودت القراءة – اتذكر تلك القصة الت قرأتها وانا صغير ، لقد امتلأ الكون شرورا وظلاما ، وخرجت الحشرات والهوام تسعي من الصندوق ، وتملا الدنيا مرضا وصخباً ، بعد ان كانت لا تعرف الا السعادة الخالصة والراحة التي لاتشوبها شائبة ، ان الفتى قد فتح الصندوق الذي استودعته اياه الملائكة واستأمنته ، فكان الذي كان . ولكن ها هو ذا صوت ينبعث من قاع الصندوق عذب ، ولكنه متواصل . .خفيف ، ولكنه مُلِحّ ، ويهم الفتى فيفتح الصندوق للمرة الثانية ، واذا بملاك من النور باسطا جناحيه ويملأ عليه الأفق ، فيطارد المرض والقبح ، ويعيد الضوء والجمال . إن القصة تسمي هذا الملك بالأمل ، ولكن مالي استحضر صورة هذا الملك الأمل ، كلما عاودت قراءة صفحاتك الأخيرة من ايامك تلك ، فلست أدري هل تتكلم عن زوجك كما يقال ، أو أنك تتكلم عن ملاك الصندوق كما خيل لي أول مرة ؟ أو انك تتكلم عنهما معا فهما لا يختلفان . ؟

* * *

ومرت الأيام وغابت شمس وطلعت شمس . . وقرأت كلمات سارتر ، واعترافات روسو ، وطفولة جوركي فيما قرأت ، واذا بنظرتي الى صغير طه حسين تختلف ، انني أراه صغيرا ملحميا لا يؤمن الا بذاته ، ولاتمر الأحداث الا من خلال نفسه . ان كفاح الأب من اجل ابنه ، وأمنيته في أن يراه شيخا بجوار عمود ، وان صبر الأم وتفانيها في الخدمة دون صخب أو لغط ، ان كل ذلك يختفي أو يتضاءل ، لتبقى صورة طه حسين ، وهو صبي ، أو وهو فتى أو وهو شاب . يصاول ويطاول وكأنه

الزناتي خليفة أو أبو زيد الهلالي ، أو غيرهما ممن كان يمد طه حسين أذنيه مدا ، لكي يسمع حكاياتهم من شاعر الربابة ينشدها في ليالي الريف . وأدركت أيضا أن سمة المكان وما يمليه على الشخصيات ، وأن ظهور الغير وتناقضة مع الصغير ، وأن صورة الريف وما كان يعج فيه وقتئذ من مظاهر التغيير والتطوير – أدركت أن كل هذا يكاد لا يحتفي به طه حسين ، الا بمقدار ما يمس هذا الصغير ، وبمقدار مايظهر صورته فوق اللوحة ، بارزة بارعة ، شتان مابينها وبين هذا الصغير النحيل الضئيل ، الذي تراه العين فتقتحمه اقتحاما . وأدركت أيضا ان ثمة تطورا بين أيام وأيام ، وأن هذا يفسر سر تعلقي بالايام الاولى دون الثانية فالايام الاولى او الجزء الاول من ايامه –كانت ترضي فضولي كصغير ، وتطعم في نوازع الحركة (والشقاوة)[٢] المكبوته والولع بالصور العجيبة ، انظر اليه يتحدث عن عدو الأرانب وعن الكلاب ، وعن أسرار السحر والطلاسم ، نوادر سيدنا والعريف ، (وشقاوة)[٣] الصغار في الطريق ، وفي الكتاب ، وفي ترعة القرية . أما الأيام الثانية خطيرة وكثيرة علمته أن والده يمكن أن يقسم ولايفي ، وأن سيدنا يمكن أن يكون كذابا تماما ، وأن العريف يمكن ان يكون (فسلانذلا)[٤] ، يأخذ الرشوة ويغري بها فاختفت نبرة الحزن والحساسية البالغة ، التي كانت تشيع في أيامه الأولى . لقد سيطر الصغير على نفسه وعلمه المجتمع أن يتكتم مشاعره ، فلا يفصح عنها الا بمقدار ، ولا يفضحها الا بحسبان ، وبرزت صورة الغير بعض البروز ، واحتلت مكانا في الصورة بعض الاحتلال . ان طه حسين جعل يستعرض نماذج غريبة وطريفة تسكن الربع وتجاوره ، وكان يرسمها بطريقة مبالغة ، اوكما يقال هذه الأيام بطريقة كاريكاتورية – يمدون الألفات ويملأون الشدق بالحركات – تجسد مواضع الشذوذ . وتنحرف بالخلقة على هذا الجانب أو ذاك الجانب ، فتحدث شيئا من التناقض والتقابل ، تثير السخرية ، ومعها شيء من العطف الحزين ، أو الحزن العاطف ، ان صح هذا التعبير ، وجعل يستعرض أيضا أنواع الثقافة ، التي كانت تموج في صحن الأزهر ، واذا به يذهب الى أبعد من ذلك ، فيتحدث عن الأشياء الجديدة التي أخذت تهب على مصر في ذلك الحين ، والتي وجهت صاحبنا وجهة جديدة . برزت الجامعة القديمة ، والتحق بها طه حسين ، وظهرت الجريدة واتصل بها طه حسين بل ماله – وقد نال شيئا من الاعتراف والتقدير – أن لايفسر خصلة من خصاله ، التي صاحبته في الكثير من منعطفات حياته ، إنه يميل الى التحدي والإثارة ولفت الأنظار ، وماله لايفعل ذلك وهو يراه تأكيدا لشخصيته واثباتا لذاته إن طه حسين بصراحة قلما يفعلها أحد من معاصريه وفي مجتمع يتبع السوءات ولا يفسح صدره للهفوات ، واذا بأبيه يتحدث عنه كما كان يتحدث عن اخيه الأكبر ، وإذا بهم يلتفتون إليه كما كانوا يلتفتون الى أخيه الأكبر ، فما

---

(٢) (٣) الشقاوة والشقاء بمعنى : ضد السعادة . هذا هو الفصيح . اما هنا فالدلالة عامية يعني الكاتب بها ما يعنيه العرب بكلمة (شيطنة – تشيطن – أي صار شيطاناً)

(٤) فسلانذلا : لا أعرف لها معنى .

باله لايذهب الى أبعد من ذلك ؟ لقد تحدي في الأزهر ذلك الشيخ سليط اللسان ، فذاع أمره بين الأنداد ، وجعلوا يتحلقون حوله بعد أن كانوا يتجاوزونه وكأنه شئ من الأشياء . أو هو كالثمامة .

وأدركت ايضا ان ذلك التفلسف الذي يشيع في كتب طه حسين ، يبدو هينا لينا لا يكد الذهن ، ولا يهد العقل ، ولا يجهد الرجل العادي ، ولماذا يجهده وهو يلجأ اليه حين يكون مصبحا ، وحين يرتفع الضحي ، وحين يكون ممسيا . لانه تفلسف يدور حول ما يفعله الصباح والمساء ، وما تحدثه الحوادث وتظهره الحياة . حين تجعل الصبية يشبون ، وتجعل الشباب يشيبون . انه تفلسف تسمعه من الرجل العادي حين يصيح آه يا دنيا ، وتسمعه من الثكلى حين تصيح آه يا زمان ، وتسمعه من حكيم القرية حين يصيح ايام ، وتسمعه من الشيخ عبدالرحمن في رواية شجرة البؤس حين يردد عند كل حادثة هذا القول الكريم« وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضي الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم» ، وتسمعه من شيوخ القرية حين يتمتمون بهذا القول المأثور «اللهم الطف بنا فيما جرت به المقادير . . اللهم لانسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه» ، وأن طه حسين لايميل الى التجريد ، إنه ينتزع الفكرة الفلسفية من مظانها بطريقة مشروحة ، توضحها الأمثال ، وتفسرها المحسوسات . وقد تذهب هذه الطريق بالكثير من جوهر الفكرة أو تخفف من عمقها ، ولكنها تقترب من القارئ ، تتحسسه ، تتسلل اليه ، فيستريح اليها ، وماله لا يستريح وهي لا تتطلب منه تعبا متعبا ، ولاجهدا مجهدا ، إن طه حسين يبتعد عن كد الفلاسفة ليتقرب من حساسية الأدباء ، فاذا به يحس الفكرة بقلبه ، ويخلع عليها الكثير من الجمال ، ويقترب بها من المحسوسات فيكاد يلمسها ، ان فلسفة طه حسين هينه لينه لا تتعدي هذه الأفكار عما تبديه او تخفيه الحياة ، أو تلك الأحاسيس التي تتسلل الى النفس ، وتتسرب الى الفكر ، حين يلاحظ الانسان أجيالا تعقب أجيالا ، ويشاهد الأزمان تنتقل بالغلمان والفتيان والشيوخ والكهول ، فيذكر قول الأقدمين عن كر الليالي وفر الأيام ، ويتذكر قول الله تعالى « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام ، حتى اذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا ، فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس» .

أدركت هذا وأدركت أشياء أخرى قريبة من هذا ، وكان لكل أثره على الرعشة الأولى ، وما اكثر ما تذهب الأيام بالبكارة الأولى ، ولكن الذي لا يضيع ، ولاينبغي له ان يضيع ، بين الرعشة الأولى والنظرة الثانية ، هو ذلك الجو الموسيقي الذي يعزفه طه حسين ، فيرتفع بالقارئ ويأخذه من حوله أو يأخذ من حوله عنه ، حتى يخلص القارئ له ويخلص هو للقارئ ، ولاتبقي الا أرواح تتناجى وأطياف تتناغى واننا لانستطيع ان نصنف – اذا فرض علينا أن نصنف – طه حسين في طبقة الكتاب الواقعيين ، على الرغم من رواياته وقصصه الاجتماعية ، لانه يأخذنا ويأخذ معنا الشخصيات التي

اختارها من الواقع ، ثم يرتفع بكل ذلك الى جو فني ، تصدح فيه موسيقية أسلوبه ، وتبرز فيه تشكيلية لوحاته ، سمه كلاسيكيا إن شئت ، على عادة الكلاسيكيين الذين يهتمون بصناعة الكلمات ونصاعه العبارات ونقاء الالقاء وأناقة الأداء ، وسمه رومانسيا إن شئت أيضا ، على عادة الرومانسيين الذين يضربون على أوتار القلوب ، ويبالغون في بؤس البائسين ويأس اليائسين ، ولم لاتسميه كذلك وانت ترى في معذبي طه حسن مشابهة كثيرة لمعذبي تشارلز ديكنز ، ألست ترى في صالح المعنى ، مخايل من أوليفرتويست المعذب ، سمه ماشئت من ذلك ، ولكنك لاتستطيع أن تسميه واقعياً ، فطه حسين نافر من الواقع ، كاره له ، ما ان يقترب منه ويسحن بالملالة والرتابة ، حتى يفر الى اسلوبه ويخلق حالة صناعية ، فيترجم عن الواقع بدلا من أن يصوره ، وهنا السر في قلة الحوار ، الذي تتكاشف فيه الشخصيات ، ويحكي عن مواقف واقعية ، وهنا السر في أنه لايستخدم اللفظ العامي ، ولو فرض عليه الموقف كلمة بعينها فانه يحتال ويحتال ، حتى يترجمها الى أسلوب كلاسيكي فصيح . وهنا السر في أنه لاسيتخدم الكلمة المألوفة المعروفة ، وإنما هو ينقب عن اللفظة ذات الرنين التي تثقب الاذن ، وتفتق السمع . انظر : ها هنا موقف لقاسم الساذج ، انه معذب من معذبي الأرض ، وقد أصيب في شرف ابنته ، إنه ينسحب الى حصيره البالى ، في ذلك الركن المهمل ، من هذه الدار المتداعية ، هنا فرصة لأن يخلو بنفسه ، ويتحدث اليها حديثا داخليا ، بعد تلك الملمة التي ألمت به ، والمصيبة التي أصابته ، ولكن طه حسين يترك حديث قاسم ليتحدث هو عن قاسم ، ولايدع الموقف ينكشف عن نفسه وإنما هو يكشفه بنفسه ، فيترجم هذه الحالة بإسلوبه الكلاسيكي . «واذا هو يسعى الى حصيره ذاك البالى فيجلس عليه متهالكا ثم يمتد وقد أنهكه ما أصاب جسمه النحيل ، وقلبه العليل الضئيل من جهد ، وإذا امرأته تسمع صوتا خافتا يأتي من بعيد جدا ، وهو يقول : لو رزقنا الله مكانها غلاما لم نتعرض لهذا الخزي ثم يعيد لهذا الخزي ، ثم ينقطع الصوت حينا ، ثم يعود أشد خفوتا وأعظم بعدا ، وهو يقول :

ماينبغي للفقراء أن يلدوا البنات ، ثم ينقطع صوته فلا تسمعه امرأته سائر النهار ، ليس هو نائما وليس يقظان ، وانما هو شيءٌ بين ذلك . اننا قد نقع على أسلوب زنان صداح ، وقد نتمتع بجو جذاب أخاذ ، ولكننا نحرم – في مقابل ذلك – من زحمة العواطف وزحمة الصراع ، وتشابك الأهواء ، وتضارب الآراء ، ولان ذلك كل التيسير الا اذا ترك الكاتب نفسه على سجيتها بعض الترك ، وأرخى زمام قلمه بعض الشيءْ ، واذا بنا لانحس مثلا في رواية شجرة البؤس بتداخل الصراع وتشابك مصائر الأجيال ، وكأننا امام تبويب لبعض الأسر والشخصيات ، ينتهي منها المؤلف ليلحق بغيرها ، بعد ان يلجأ الى العبارات التي تجمد الموقف ، وتخمد الصراع ، كأن يقول «فلندع هؤلاء الآخرين لحوادث الأيام ونوب الدهر ، تصنع بهم ما تصنع بالناس جميعاً ، ولنقم مع هذه الاسرة الناشئة التي اخذت تنمو في سرعة فقد نجد في الاقامة منها مايكفي لاتمام هذا الحديث» .

وأدركت أيضا أن طه حسين يحتفل للفظ ، ويحاول أن يخلق منه عالما جماليا تشكيليا ان شئت ، فهو يعامل الألفاظ ككتل ينضم بعضها الى بعض ، ويتظافر الحرف مع الحرف في بناء يكاد يتلمسه القارئ ، ويتحسسه المساهد ، ويتكون من وحدات متشابهة ، ومتجاورة فهو حين يقول (البغاة الطغاة – يضني ويفني – يسوء وينوء – رائعة بارعه – يائس بائس – الناغية الراغية) ، نشعر أننا ازاء (مشربية)[٣] عربية مجدولة من وحدات زخرفية متقاربة ، وعلى قدر من المساحات متساوية ، فتعطي جمالا شرقيا متناسقا .

* * *

هذا هو اذن الجانب التشكيلي ةالملموس عند طه حسين ، وهو يتآزر مع الجانب الموسيقي والسمعي ، إنه يقصد الى الكلمات قصدا من أجل ماتحدثه من رنين ، يحاول أن يصك بعضها ببعض حتى تحدث نغما ، يخاطب الأذن ويخلق جوا موسيقيا يتحرك على الورق ، انه صناجة العرب ، والمعبر عن ذوقها الموسيقي ، فالجمال عنده واضح قاطع ، ويخلو من التركيب والتعقيد ، ويعتمد على الرنين والصليل ، وتكرار الوحدات والمقاطع ، وتعويد الأذن على الكميات المتشابهة ، والعوامل المتساوية ، ان القارئ لكتابه (أحلام شهرزاد) ، يحس جوا موسيقيا ، يخاطب الأذن ويصافح الحواس ، ويشيع في الجو خدرا ، يهدهد الأعصاب كأنه العبق ، ويدغدغ الحواس كأنه البخور . انه جو يطرب ولايتعب ، ويثمل ولايرهق ويستخدم المساحة النغمية المتشابهة ، ويعتمد على التكرار والوحدات المتماثلة ، وهو في الوقت نفسه يمثل فن المترفين في الأرض ، فلا يتبين فيه جُهداً ولا كداً ، وكيف لايكون كذلك ونحن في قصر شهريار ، تحوم حوله حبيبته شهرزاد ، في مكان متباعد الأرجاء ، مترامي الأطراف ، قد زين اعظم زينة واروعها وأعظمها تأنقا ورشاقة ، وقد تقدم هذا المكان في بحيرة تحيط به في جهاته الثلاثة ، واتصل بالقصر في جهته الرابعة ، فكأنه يد قد مدها في هذه البحيرة لتأخذ منها شيئا ، وهذا المكان الواسع الرائع يغمره تلك الغرفة الضيقة الساذجة . وهذا الجمال المترف الواضح العذب ، جمال القصور الذي لاتشم فيه رائحة الشقاء ولا ألم العناء ، يشيع في هذا الكتاب بمختلف الوسائل ، من وصف للطبيعة أنيق ، وتكرار اللوحات كأنها (التابلوهات)(Tableau) الراقصة ، ومن وصف لزوارق تمشي الهوينا فوق سطح بحيرة جميلة ، بينما يتهادي صوت شهر زاد ، وكأنه القصائد المقفاة ، والأشعار المنتقاة ، فتصافح أذن شهريار وتتسلل الى حواسه وتحاول امتاعه وايناسه .

طه حسين اذن يعتمد في معاملة اللغة على جانب اللمس التشكيلي من ناحية ، وجانب السمع

---

(٣) مشربيه : شباك من خشب مزخرف ، الزخرفة وجدات من الخشب نفسه مجدولة بزخرف معروف قبل الزخرف (السلامي) المشهور في جميع بلاد العرب والمسلمين واصله (الاسلامي) .

الموسيقي من ناحية اخرى ، أن القطط تظل فترة طويلة بعد ميلادها مغمضة العينين فهي تتعرف على الحياة بأذنها وتتكشفها بلمسها ، إن حاستي السمع واللمس تلعبان دورا كبيرا في أدب طه حسين ، انه ذلك الصغير الذي كان «يخاف الخوف كله أصواتا أخرى ، لم يمكن يتبينها الا بمشقة وجهد ، كانت تنبعث من زوايا الحجرة مخيفة ضئيلة ، يمثل بعضها أزيز المراجل يغلي على النار ، ويمثل بعضها الآخر حركة متاع خفيف ، ينقل من مكان الى مكان ويمثل بعضها خشبا يتقصم أو عودا يتحطم أو ذلك الصبي الذي يفد الى القاهرة أول مايفد ، ويتعرف على مسالكها من خلال مايتبعثر في الهواء من أصوات وحركة ، فاذا تجاوز هذا الباب احس عن يمينه حرا خفيفا يبلغ صفحة وجهه اليمنى ، ودخانا خفيفاً يداعب خياشيمه ، وأحس عن شماله صوتا غريبا يبلغ سمعه ويثير في نفسه شيئا من العجب .

وفي ظل ذلك المفهوم عند طه حسين ، لاتجد استطالة في الجملة ، أو ترادفا أو تكرارا يصدر عن لغو يملأ به الصفحات ، انه يعمد الى ذلك عمدا لايبالى أن يتهمه متهم ، لأن غايته خلق الجو الموسيقي ، فلا تجد استطالة او ترادفاً او تكراراً الا وله وظيفته في ظل تلك الغاية . هو حريص على ارضاء الأذن ، مندفع الى هذا بكل مايستطيع ، انه حين يقول حياتها تلك لم تكن ضيقة كل الضيق ، ولكنها لم تكن واسعة كل السعة ، وانما كانت شيئا بين ذلك ، فيه الرضا احيانا وفيه الشدة والعسر أحيانا اخرى انه لا يفعل ذلك قصورا عن ان يصف حياتها بانها متوسطة ثم يكف ، ولكنه يعمد الى مايسمونه الاستطالة حتى تستريح الأذن ، وحتى تأخذ كل جملة مساحتها . وهو حين يرادف بين (الطغاة البغاة – ثار وفار – أرغى وازبد) أو يسجع في مثل (الهدوء الرهيب والصمت المهيب) ، أو يكرر بين الحين والحين عبارات بعينها ، انما يفعل مايفعل حرصا على الجو الموسيقى . ان طه حسين يملي ولايكتب ، ويصغي الى املائه يخرج من فيه ، ومن ثم فهو مهتم بان يتوافر لكلماته ما كان يتوافر للشعر العربي القديم ، حين كان يلقيه الشاعر على المجتمعين في الأسواق والندوات ، وهنا سر الامتاع حين نسمع طه حسين وهو يحاضر ، وكأننا نستمع الى شاعر يلقي قصيدة خليلية ، وهنا السر في أن القارئ لكتبه يتأني ويتلوها بصوت مسموع جهير ، إنه لايستطيع ان يمد بصره فوق الكلمات ثم يغادرها بسرعة ، بل ان يتمهل ويتريث ، وان يدع الكلمات تكمل مخارجها ، وتستقر في مواضعها ، حسب التنسيق النغمي والترتيل الصوتي .

لقد أدرك طه حسين سر اللغة العربية ، فكان تجسيدا لعبقريتها ، وإعجازا من وجوه اعجازها ، انه دائما في خدمة اللفظ يخلق منه منمنمات ، لها حلاوة وعليها طلاوة ، او يرسم منه سجادة مزخرفة كتلك السجاجيد التي تملأ القصور والمساجد ، أو يشيد منه (مشربية) ذات خروم ووحدات متكررة ومتماثلة ، وهو يستثمر في كل ذلك الوسائل التقليدية للغة العربية ، فما اعظم الدور الذي يلعبه البديع عنده وخاصة الجناس ، وما اروع ذلك التركيب العربي الذي يصافح الأذن ، وكأنه وقع أخفاف

الابل وهي تضرب في الصحراء ، في ليل قمري ، يدعو فيه الكروان ، ويئز الجندب ، وتتحرك ظلال الكثبان والقيعان والجلاميد ، وكأنها جن او هواتف ليلية ، فيخيل للساري ان اصواتا تصل اليه ، وأن هذه الأصوات تملأ أرجاء المكان ، وأنحاء الصحراء ، وأقطار نفسه .

لقد انتهت اللغة العربية الى طه حسين بكل سرها الفظي ، وبكل تاريخها الذي يعبر عن وجدان قومها ، وبكل تراثها المضمخ بالألوان الحسية الواضحة ، فحطت رحالها عنده ، ووجدت فيه ابنها الذي ينطق عن جوهرها واعجازها . ولكنه لم يسلمها كما استلمها ، فأضاف اليها من ذات نفسه ، وفجرها من داخلها ، وجعلها تستجيب للمنجزات الحديثة ، فلم تضق عنده عن خوالج النفس ، ولا عن الحركة التصويرية ، ولا عن النجوى الداخلية ، ولا عن لحظة المأساة ، ولم تعجز عن أداء الحوار ، حتى الدعابة التي كان يترخص بعض القدماء في ابرازها كما هي ، يحتال لها طه حسين حتى يؤديها بالتراكيب الفصحى ، دون أن تفقد حيويتها وقدرتها على الامتاع وانتزاع الضحك .

* * *

قال التلميذ الفتى لاستاذه الشيخ : يخيل لي أن للغة العربية سرا تلقيه بين الحين والحين في روع أحدهم ، فينطق بأروع الآيات وأبرع البينات .

قال الاستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : اذا كان يبعث في هذه الأمه من يجدد لها دينها على رأس كل قرن ، فغير بعيد أن يبعث لها من يجدد لغتها بين الحين والحين .

وأطرق الفتى اطراقة قصيرة ثم انصرف ولم يعقب .

المصادر

أحلام شهرزاد
أديب
الأيام
جنة الحيوان
جنة الشوك
الحب الضائع
حديث الأربعاء
دعاء الكروان
رحلة الربيع
شجرة البؤس
صوت باريس
على هامش السيرة
القصر المسحور
مجلة الثقافة (عدد خاص ديسمبر سنة ١٩٧٣)
المعذبون في الأرض
نفوس للبيع

العقاد

وسر النار المقدسة

نفس العقاد نفس شفافة تحتضن الكون ، فيها روح الطفولة ، وحنان المرأة ، ورقة الشيخ ، فيها نحيب الراهب وأنةَ الملتاع . إنها نفس العاشق الذي يحتويه نوع من الحب ، ينسيه مكتسبات الانسانية وأضافات المجتمع ، ويعيده الى حالة الطفل قبل أن يسيطر على نفسه شيْ ، أو الى حالة الانسان الأول قبل أن يتحول من البساطة والبراءة ، ذلك النوع من الحب الذي قال عنه "وفي الحب كثير من بقايا الطفولة وتراث الغريزة ، فلابد للقلب من فترة قصيرة أو طويلة ، يعاف فيها كل هوى غير هواه ، كما يعاف الطفل كل ثدي غير ثدي أمّه ، أو يعاف الطير كل أليف غير اليفهْ" أنها نفس ذلك الشاعر الموجوع الذي يرسل في الليل هناته ، ويكشف عن دخيلة نفسه ، فاذا هي متألمه مُجهَدة ، تُرسل الحسرات تلو الحسرات .

وبكيت كالطفل الذليل ، أنا الذي	ملان في صعب الحوادث مِقودي
وغصصت بالماء الذي أعددته	للريّ ، في قفر الحياة المجهد
لاقيت أهوال الشدائد كلها	حتى طغت فلقيت مالم أعهد

تلك هي نفس العقاد كما تنكشف عند النظرة التي لا تكتفي بالسطح ، ولكنها مع ذلك تتبدى للناظرين في صورة مخالفة ، فاذا هي نفس انسان يعتزّ بذاته ، شديد الثقة بما يقول ، لا يريد أن يعترف بضعف ولو كان انسانيا ، يحاول أن يضفي على براءة الطفل ورقة الشاعر ، قسوةً من الملامح وخشونة من الظاهر ، انها نفس انسان يطمح الى مثال من إله فرعوني ، كتلك الآلهة الحجرية التي تملأ صعيد مصر ، ويقدم لها البشر القرابين والضحايا .

صراع عنيف بين قطبين متكافئين ، كل يشده الى جانب ، قطب يمثل ضعف الانسان ورقة الفنان ، وآخر يتمثل في ارادة حديدية تحاول اخفاء ذلك الضعف ، وابراز وجه آخر ، فيه قسوة الملامح وصلابة العقل . والعقاد بين هذين القطبين حائر ، يكتوي بنار الصراع ، إن أجمل فقرات قصة سارة هي التي تصف حيرة العقاد ، وتمزقه بين عاطفته وارادته ، انّ نفسه تتكشف ساعة المفاجأة ، حين يكون المرء على سجيته ، ولم يعط الفرصة لكي يحتمي بارادته فتكتم ما بداخله ، كان غاضبا من سارة وصمم على مقاطعتها ، ونجحت ارادته في ذلك ، ولكن بعد مدة وفي عطفة طويلة فاجأه صوتها أهو أنت ؟ فأخذ على غرة قبل أن يلملم نفسه ، ويلوذ بارادته «وهجم على نفسه طوفان من الدوافع والهواجس ، التي لا يوجد لها اسم في اللغات الانسانية ، لان اللغات الانسانية لا تستطيع أن تضع اسما لألوف من النقائض والمفاجآت التي يجتمع فيها الرعب والسرور ، والشوق والنفور ،

والهيام والاشمئزاز ، وتريد بها النفس أن تقف ، وتريد بها القدم أن تسير ، بل تريد بها النفس أن تقف لأنها لا تقوى على أن تريد» .

حيرة وصراع بين وبين ، ولم يحدث شيْ من المصالحة ، يجعل من ضعف الانسان أمرا لا يتناقض مع الاعتزاز الذاتي ، بل ربما يتكامل معه ، كما يتكامل هذان الجانبان في نفسية الفارس العربي ، الذي لا يخجل من عواطفه ولا من ضعفه أمام حبيبته ، بل يجعل هذا الضعف دافعا له الى البلاء في الحروب وقهر الخصوم ، ولكن العقاد تمرد على طبيعة الانسان كما خلقها الله ، وأراد أن يقترب الى الآلهة ويتجسس على طبيعتها ، فكان أشبه بهؤلاء النفر من الجن الذين كانوا يتسمعون أسرار السماء ، ويتسقطون أنباء الغيب ، فأحرقهم الله بناره ورجمهم بشهاب رصد .

* * *

ان في قصة العقاد شيئا من المأساة الكونية ، وتمردا أقرب الى تمرد الأبطال الاغريق على قوانين الآلهة ونبوءات العراف .

تقرأ قصة سارة فتحس قوة الحب الذي تَملَّكَ هذا الرجل وغَشِيَ حواسَّه ، ان هذه المرأة قد تسللت الى كل خلية من خلاياه ، ونفذت الى لحمه ودمه ، فأصبح يعيش بها ولها ، ولكنه لا يريد ان يترك نفسه على سجيتها .

وكيف يترك نفسه على سجيتها ، وقد أحس منها خداعا ونفورا ، أيخدع وهو همام ؟ انه الهول الذي ما بعده هول ، اذن فليبالغ في صفات البطولة ، وليكن أسطورة من الأساطير ، ولكنها المبالغة التي تفصح أكثر مما تخفي ، وتنبيْ أكثر مما تكتم . لقد تركها بعد أن أحس منها بوادر القطعية ، ولكنه جعل يتعلل بالمعاذير . وحين انجلت له الحقيقة وأسفر وجه اليقين الذي ينبغي أن يميت كل شك ، وأن يرد الحائر الى صوابه ، لم يعدم تَعِلَّة يطيب بها جراحاته ، ويداوي كرامته المثلومة ، انه يلقي في نهاية القصة هذا السؤال «أليس من الجائز أنها وفت لك أيام عشرتها ، واستحقت وفاءك لها وصيانتك لها وغيرتك عليها ؟ أليس من الجائز أنها يئست منك فزلت بعد الفراق ؟» .

سؤال يهجس له بين الحين والحين ، وهو لا ينتظر اجابته ، لانه من نوع الاسئلة التي تُلقى لتريح ، وقد يكون في الاجابة عنها ما يسوْ ولا يريح .

هل هو تَعِلَّة أكثر منه سؤال ، يطرحها العقاد فوق داخله الذي يضطرم بمشاعر حادة ومتناقضة ، فيها الضعف وفيها الاخفاق ، وفيها الاحساس بأنه قد غُرِّر به ، يقولون : إن نوعا من السمك يطلق خلفه سحبا من الدخان تحميه من غدر الصائد وتحفظه من مكر الأعداء .

وأيّ شيءٍ ينفّر العقاد أكثر من الضعف والاخفاق والاحساس بالهزيمة ، ان كل هذا يتنافر مع الصورة التي رسمها لنفسه أو لهمام – وللاسم دلالته – رجل يقارب الأربعين يملأ الكتاب من أوله الى

آخره ، بفحولته وضحكاته المجلجلة ونكاته اللاذعه ، وحواره الذكي ، رجل يقترب من الطبيعة في فورانها وهيجانها ، ويقترب من ذكر الحيوان الذي يطلق رائحة ، تجعل الضحية تتبعه ، وهي مستسلمة ، انها رجولة لا تشوبها شائبة حتى ولو أراد الله ان يمزج الضعف بالقوة ، ويولج الليل في النهار ويخرج الحي من الميت ، انه لا يؤمن بتوالد الأضداد ولا تعايش المتقابلات .

ويلي لهذا الرجل ! كم كان يقاسي وقد انتصرت ارادته الحديدية على نوازع نفسه ، ربما كانت الهزيمة او بوادرها التي لاقاها في حبه دافعاً لهذا الانتصار ، يقولون انه كان يعلق في حجرة نومه صورة تمثل المرأة كقطعة حلوى تحوم حولها الصراصير ، كم تكلف العقاد من أجل ان ينتصر على نفسه ؟ وأي عذاب لقيه لكي يتغلب على نوازع تتدفق داخله ؟

تفلت بين الحين والحين جملة من العقاد ، فتكون اكثر دلالة على نفسيته من مجلدات تكتب عنه ، لقد رآها وهو في حالة شكوكه فجأة وبدون سابق اعداد ، فاذا به ينكشف على حقيقته ، ويظهر الكثير مما كان يخفي «لو انه رآها عند أول الطريق ، قبل أن يفاجئه من صوتها ذلك الهاتف الطارئ ، فلعله كان يعرف ما هو مقبل عليه ، ويستعيد في نفسه شيئا من ذلك العزم الذي أعانه على القطعية ، وأمده بدواعي الاصرار عليها ، كلما جنح الي اللين والاغضاء والمغالطة ، ولكنه أخذ على حين غرة ، فوقف هنيهة لا يدري ما يقول»[1] .

• • •

وأخيرا انتصرت ارادته الحديدية ، وتغلب على قدره ، وسما فوق طبيعته «جائز ان يكون هو وهي ألعوبة واحدة في يد الطبيعة التي تسومه ويسومها ، ولكنه ليس بالجائز أن يكون ألعوبة في يدها وان تكون هي اللاعبة بلبه وارادته . . .

انتصر العقل اذن ، وانهزمت العاطفة ، وتغلبت الارادة على كتم أحاسيسه ، فبدت كتبه في نظام صارم يتحكم فيها عقله ، إنه وراء كل كلمة ووراء كل حرف ، وكأنه يخشى ان يفلت منه شيئ فينبئ عن شيئ ، بل ما لي أراه يذهب الى اقصى الحدود ، فيريد أن يترك القارئ مبهورا فاغرا فاه ، وكأنه أمام الحجاج الثقفي يخاطبه بقول الشاعر :

أنـــا ابـن جلا وطلاع الـــثـــنـــايـــا   متى أضـــع الـــعمامـــة تـــعـــرفوني

ولكنه في الحقيقة كان انتصارا أقرب الى الهزيمة ، أو ان شئت فهو انتصار هنا على حساب هزيمة هناك .

لقد عقل عواطفه ، وأغلق عليها بقفل من حديد ، وبقدر ما يكون هذا القفل وصلابته – هكذا

(1) سارة ص ١٠

يرى – بقدر ما يدل على قوة الرجل ، انه معيار من معايير الرجولة تمتحن به الصلابة والثبات ، يقول العقاد : «من التجارب المكرورة عندي انني كلما ألمت بي نوبة ضعف ، وهانت علي نفسي ، لا أسترد الرضي عنها ، ولا أفلح في تسرية غمتها ، حتى أوفق الى عمل معنت ، أجرب به قوتها ، أو رغبة شديدة أروضها على التغلب عليها ، فاذا أفلحت التجربة اطمأننت الى نفسي ، ورضيت عنها ، كما يطمئن المرتاب في قوة جسده ، حين يروض عضلاته بحمل الاثقال ومقاومة الشد والجذب» .

لقد انتصرت ارادته ، ولكنه انتصار معدود في جانب الهزائم ، حين تمتحن الأمور بنتائجها ولا تؤخذ على ظواهرها ، كم يكون رائعا لو أن هذه العواطف المهزومة تسربت بحساب فجففت من هذا العالم العقلي المتجهم ، أما كنا نجد حينذاك جاذبية اكثر ، ونُحسُّ في صوت العقاد الذي يندفع كشلال او كصخرة ، شيئا من خرير المياه ورقة النسيم ، او نجد في عبقرياته ذلك الجانب الانساني الذي تكتمل به الصورة ، ويبرز جانب السمو ، فتضارب الالوان يعطي اللوحة المرسومة وضوحا في معانيها ، وقديما قالوا بضدها تتميز الأشباه .

أيهما خير؟ انسان خلق من نور – أو هكذا يتوهم – فهو لا يجد في نفسه نازعة ولا هاجسة ، انه يسبح الله آناء الليل وأطراف النهار

أو ذلك الأنسان الذي يحس بهواجسه ، ويعيش لحظات ضعفه . ولكنها لا تكون على حساب الضبط والربط ، أو أن الضبط والربط لا يكون هو الشيْ الصارم ، الذي يميت كل عاطفة ويخفي كل هاجسة ؟

وفي حسباني أن اجابة هذا السؤال نجدها في الاجابة عن السؤال التالي :

لماذا أمر الله الملائكة وهم من نور أن يسجدوا لآدم وهو من تراب ؟ ولماذا عاقب ابليس وكتب عليه أن يكون طريدا حين تمرد ، ولم يجد في هذا الامر منطقا مقنعا ؟

أو يمكن ان يضاع السؤال بطريقة مختلفة ولكنها تؤدي الى الغاية نفسها :

لماذا عاقب الله هاروت وماروت وهما ملكان . احتجا على ضعف الانسان وعصيانه لأوامر ربه ، فسخها الله عمودين من دخان ، معلقين في الفضاء الى يوم القيامة ، لاهما من الأرض ولاهما من السماء .

لقد صور العقاد ابليس في قصيدته ترجمة الشيطان فاذا به يصور فردا متميزا يتحدى :

وبــدا الشـيـطـانُ مـعـروقـا تـرى كبريــاء الـكـفـرِ في وقـفـتِـهِ
عــاليَ الجبهةِ يــأبى الـقـهـقـرى وتـوّج الـنــارُ من نـظـرتـهِ

عاقب الله ابليس وكتب عليه أن يكون طريدا .

ولكن هل قدر أن تتكرر قصة ابليس مرة أخرى ؟

سؤال لا نجيب عنه ، ففي الاجابة عنه قد نلتمس مفتاح شخصية العقاد ، ونحن لا نريد ان نلتمس هذا المفتاح في جملةاو جملتين ثم نريح ونستريح .

فحول هذا المفتاح يدور حوار كثير حائر ومحير .

هو من أسوان ، فلو قلت انه اله فرعوني ، لما كذبت ، فعلي ملامحه تجهم ، وفي صوته عبوس ، وفي وقفته احساس بأن الجميع امامه يركعون ويسجدون .

ولو قلت إنه احد آلهة الألب ، الذين كانوا يختصمون ويتساجلون ، ويحبون النساء ويبدو منهم بعض المهاترات ، لما ابتعدت عن الحقيقة أيضا .

فهو اذن هذا وذاك .

هو العقاد بطفولته وشاعريته ورقته .

ولكنه هو العقاد الذي يرى كل ذلك ضعفا وعجزا وعيبا .

هو واحد من تلك الآلهة التي تملأ صعيد مصر ، ولها طريق يسمى طريق الكباش ، لانها تبدو في تمثال من راس كبش وجسد سبع ، ويقال ان هذه الثنائية ترمز الى قوتين مختلفتين .

* * *

وتزداد الحيرة اذا كان المفتاح الذي خيل الينا انه يفضي الى طريق مضمون ، قد يغلق علينا الأبواب من الداخل ، أو يدلف بنا الى حجرات مظلمة أو يضللنا ، فاذا نحن في مسالك لا نأمن عثارها ، كهذه الآبار الوهمية التي كان يحفرها الفراعنه في مقابرهم لتضلل اللصوص ونبَّاشي القبور ، الذين يتطفلون على حرمة الأموات وسر الآلهة .

قد يخيل لك انك واجد مفتاح شخصية العقاد في كلمتين ، هما اعتداده الذاتي ، فهو مفتاح يمكن ان نجده وراء كل تصرفاته وسلوكه ، ويمكن ان نلتمسه في كل مؤلفاته ، وفي طريقة تأليفه .

فمن أجل اعتداده بذاته ، هجر الوظيفة الصغيرة في مديرية أسوان ، وهاجر الى القاهرة وخاصم الرؤساء ورجال السلطة ، وكان يقول أنا كاتب الشرق بالحق الالهي .

ومن أجل اعتداده بنفسه ، لم تدم علاقاته مع النساء كثيرا ، ولم تتطور احداها الى بيت الزوجية ، فالنساء بطبيعتهن ينجذبن الى الشخص المعتد بنفسه ، ولكن من أجل أن يفقد هذا الاعتداد معهن ، ياويل الرجل لو احتفظ بهذه الصفة معهن ، انه حينذاك سيثير فيهن التنمُّر وحبَّ الافتراس ، وسيحول حبهن الى نزعة الكره ثم الهجوم ، العقاد ماكان له – وما هو يستطيع لو أراد – أن يتخلى عن غروره ولو من أجل ربات الجمال ، انه ينفي في علاقته مع سارة ان يكون شابا مخدوعا في أحلامه ، يؤمن بقداسة المرأة على منوال عصور الفروسية ، أو يكون رجلا مطموس البصيرة ، مملوء الخياشيم بالغرور ، فيخيل اليه انه حَسْبُ المرأةِ ومَطمعُها ، انه فيما يرى لا يُخدع بهذا الضرب من

الغرور ، ولكنه ما إن ينفي ذلك حتى يسارع باثبات انواع اخرى له من الغرور ، حتى ولو لم يكن المقام مقام تعداد الغرور ، بل كان مقاما يضيق بالاستطراد والخروج عن المرسوم ، يقول «ولم يكن مخدوعاً بهذا الضرب من الغرور ، لانه موكول الى ضروب اخرى من غرور النفس ، مطبوع على ان لا يعلق قيمته في معارض الفخر والمباهاة ، على رأي انسان من النساء أو من الرجال» .

ولكن هل هذا مفتاح شخصيته حقيقة ، أو انه المفتاح الذي يضلل ويخفي وراءه الكثير ، حقا ليس هو امرؤ القيس ولا عنترة ولا الشاب من عصور الفروسية ، وحقا ليس هو الرجل مطموس البصيرة الذي يخيل اليه أنه أمنيته المرأة فحسب ، بل هو الرجل الذي لا يهتم برأي انسان .

* * *

لمـــــاذا هـــذا ؟

ان الاجابة عن هذا السؤال تقتضي ايغالا داخل النفس ، والمرء حين يوغل في النفس لا يأمن السلامة ، ولا يعتقد أنه واصل الى الحقيقة ، لأن المجال مجال اجتهاد وتقديم وجهة نظر لا تدعي أنها ملمة بكل التيارات الداخلية ، التي تتدخل في نشوئها عوامل ، قد ترتد الى مراحل الطفولة ، وقد تمتد الى الوراثة بعرق مدسوس ، ومن ذا الذي يستطيع ان يزعم انه يعرف الكثير عن طفولة العقاد مثلا ، انه لا يعرف الا مقدار ما يقدمه هذا الرجل ، وهذا الرجل قوي التحكم في نفسه لا يسمح للاوعيه بالتسرُّب كثيرا ، ولا لفلتات لسانه أو قلمه ان تطفو ، ان وعيه هنا يقوم بدور الرصد الذي تتحدث عنه أساطير الصعيد ، فيزعمون انه يقوم حارسا على «لقايا» وكنوز خبيئة ، ولا يسمح لاحد بالاقتراب ، انه يرش في عينيه التراب فيضلله ، ماعدا الموعود بالاسم في كتب المغاربة ، ان العقاد لا يقول الا ما يريد ، والا ما يخدم الصورة التي يرسمها لنفسه ، ويريدها ان تنطبع في أذهان الناس ، انه يضلل هؤلاء الذين يحاولون ان يتطفلوا على كنوز الموعودين . فحسب المرء – وهو يريد ان يجول داخل العقاد – ان يقدم تفسيرات ، وان يتلو طلاسم واحجبة ويطلق البخور ، لعل الكنوز تفتح ، ولكن ليس من اللازم ان يكون تفسيره هو المفتاح الوحيد .

لماذا كانت صورة هذا الاعتداد قوية ومنبثقة في كل ما يدور في فلك العقاد ؟

يرسم صورة لنفسه في قصة سارة ، فاذا هو الشخص الذي يمن بحبه ، ويعتبره فضلا كبيرا يمنحه هذه المرأة «كان اهتمامي بك حتى بالغضب عليك يفرج شيئا من الضيق الذي يسد عليك منافذ الامل ، يعطيك فكرة عالية في نفسك ، فيغريك ويقويك ، ويرفع عنك ذلك الصغار الذي يسمم كل شعور ، وينغص كل نعيم» واذا هو يتحدث عن نفسه اكثر مما يتحدث عن المرأة ، على خلاف العادة التي تجري بين الذكر والانثى من بني الانسان ، والتي يحب فيها الرجل وتحب فيها المرأة ، ان تكون الانثى هي محور الحديث ، ومحور الغزل ، ومحور مواقع الكلام .

ويكتب شيئا عن حياته فلا يجد احب الى نفسه من عنوان «أنا» ، ربما لانه فارع ممتد ، يعيد

الكون الى محوره الذاتي .

ويتحدث ابن اخيه عامر العقاد عن منهجه في التأليف ، فاذا بنا نرى الرجل يضع الكتاب والفكرة في ذهنه ، ثم يقرأ ليكمل الخانات والعناوين ، لا يقرأ ليضع الكتاب كما هي الطريقة المنهجية المنضبطة ، ولكنه يضع الكتاب ثم يقرأ .

وتقرأ كتبه فتحس ان الرجل يملي عليك أفكاره ، انها الفكرة في ذهنه ثم يبحث لها عن دليل ويفتش عن نص ، واذا كان النص لا يستقيم لفكرته ، فانه يلوي عنقه ويقدم التفسيرات من حوله ومن أمامه ، حتى يستجيب رغم انفه للفكرة المتربعة في ذهن العقاد .

بل لماذا يحتاج الى نص اساسا ويفتش عن دليل ، ما اكثر افكاره التي لا يلتمس لها شواهد ، حسب المرء انها صادرة من العقاد ، وحسب الشادين ان يعرفوا ذلك حتى لا يسألوا عن الدليل ، بل ربما كان السؤال حينذاك تمرّداً وعصيانا واقتحاما لدائرة الاختصاص .

انه من طينة غير طينة البشر ، تراه في قصة سارة ، فاذا هو عملاق يمتلئ رجولة يوسع له رجل الامن الطريق ، ويتهافت النسوة عليه ، عملاق وحده وكل من في القصة تابع يدور في فلكه ، حتى العلاقة مع أصدقائه لا تقوم على التكافؤ والود ، وكيف يكون التكافؤ بين رجل قوي العقل ذكيّ الحوار ، وبين صديق مثل أمين مضحك كثير الهفوات والبدوات ، أو بين صديق مثل زهران طريف لاهم له الا الترفيه عن صاحبه .

* * *

ما انطباع القارئ أمام هذا الانسان المطلق ، امام هذه العلاقة التي تفترض علوا وسموا من جانب ، واستجابه واذعانا من جانب آخر ، ولا يخرج في مفهومها عن علاقة الذكر والانثى في مجتمعنا ، جانب يُلْقِي وجانب يَتَلَقّىٰ .

نحن في ذلك أمام قارئين .

قارئ يقف مبهورا مستسلما منوما ، كهذا الكوكب الذي ينجذب نحو الشمس ، لان جاذبيته أقل ، ولأن هذا الانجذاب يحفظ عليه التوازن والتعلق في الفضاء ، يحميه من السقوط والانحدار ، هذا القارئ يخفض بصره امام هذا العملاق ، الذي يملأ عليه أقطار نفسه بقامته وبصوته الجهوري ، وبمعاملته الرقيقة التي تربت على الكتف ، كما يربت الأب على ابنه ، ويبتسم له ابتسامة ملك مطلق لتابع لا تهجس نفسه بشيء خارج دائرته ، هذا القارئ يخفض صوته امام هذا العملاق الذي يشرق ويغرب في الثقافة ، وَليلْتَقِط لُه حبات الرمان من جزيرة الجان ، ودونها سبعة بحار ، ويدخلنا في ثورات ومعمعات ، يصر على ان يكون المنتصر في نهايتها ، مهما كلفه ذلك . وينمي العقاد هذا الشعور ، ويكلف نفسه ما تطيق وما لا تطيق ، ولو كان ذلك مخالفا لطبائع الأشياء ، يذكرون انه وهو تلميذ صغير بالمدرسة الابتدائية ، كان يختار في موضوعات الانشاء التي تعقد للموازنة والمفاضلة

بين شيء وشيء ، الجانب الضعيف ، لكي يبرز العقاد براعته وقوة حجته ، وينصر مالا أمل في نصره فترتفع شخصيته وقامته اكثر ، زار الامام محمد عبده مدرسته ، وكان الموضوع يدور حول الموازنة بين السلم والحرب ، فاذا بالصغير العقاد يقف مع الحرب ويحبذها ، لانها مجال لاظهار البطولة وسبيل لتنقية المجتمع من عناصره الضعيفة[1] وقد ظلت هذه الصفة لازمة ترافقه طيلة حياته ، حتى تعثر في آخر كلماته على قوله «صاحب الفضل المشكوك فيه اقرب الى ثناء الناس من صاحب الفضل الثابت الذي لا شك فيه . لانك تشعر وانت تثني على صاحب الفضل المشكوك فيه ، انه يحتاج الى ثنائك ، والانسان يحب ان يشعر باحتياج الناس اليه ، ولانك تثني عليه وأنت تعلم انه قادر على انكار فضله والانسان يحب حرية الاختيار»[1] وكان يريد ان يركز كل شيء حول نفسه حتى يبدو فارسا ملحميا يعجب الجميع . دعا الى التجديد في الشعر في مقدمة ديوان المازني ، وحين تم التجديد بطريقة أخرى ثار ، ووقف ضده وقفه مضربة ، حتى عبقرياته كان يرسمها صورة من نفسه فرداً فذاً ، لا يعتوره نقص ولا ضعف ، مثاليا يفوق المقاييس الانسانية العادية ، بطوليا الى اقصى الحدود ، حتى ولو كان من الثابت تاريخيا ان له بعض الهنات ، التي لا يستبعد ورودها من انسان كائنا ما كان .

هذا القارئ المبهور هو واحد من مريدي العقاد .

* * *

ولكن ما بال قراء آخرين ، يحسون أن العقاد لا يخاطب ذاتيتهم ، ولا يريد ان يشركهم في العملية ، التي تقوم بين قارئ وكاتب على اساس انساني ، يلقي فيها الكاتب وجهة نظر تؤرقه ، ويلجأ الى القارئ لمعاونته ، وتقوم بينهما صلة مؤداها أخذ ورد وشدّ وجذب عسى ان يصلا أو يقتربا من الحقيقة ، ان الكاتب لا يلقي حينئذ وجهة نظر مطلقة ومفروضة ، والا لما احتاج الى قارئه .

هذا النوع من القراء يحسون ان العقاد لا يريد ان يرتفع بهم ، وان يخاطب انسانيتهم ، حقا انهم يعجبون بهذه القدرة العقلية التي لا تقاوم ، وتمتص كتب الطب والدين وعلم النفس والحشرات وسائر انواع المعرفة ، انها قدرة متنوعة ، قدرة ناقد ، وقدرة شاعر ، وقدرة باحث ، ولكن امام هذا النوع من القراء فإن هذه القدرة محسوبة عليه لاله ، فهم ، لسبب ما ، يشعرون أن الرجل يفعل ما يفعل ، من أجل أن يبهرهم ، ويتملك عليهم انفسهم ، فلا يتنفسون الا به ، ولا يفكرون الا له .

ويل لك لوكنت من هذا النوع الذي يتأبىٰ على سيطرة العقاد ، وسولت لك نفسك بالاقتراب من النار المقدسة ، أو من عرين الأسد ، فأنت حينذاك غير مصون من الزئير الذي يزعجك ، ومن اللهب الذي يحرقك . اذكر صراعه في اعوامه الأخيرة مع محمد مندور ، واذكر الكلمات العنيفة التي

(١) مع العقاد للدكتور شوقي ضيف ص ١٤ .
(١) آخر كلمات العقاد ص ٨٧ .

كان يطلقها العقاد ، والسخرية الجارحة التي كان يلاحقه بها ، كل هذا ليس له ما يبرره ، مادمنا في مجال الفكر الذي نختلف حوله ، وايدينا ممدودة للمصالحة ولكن الذي يبرره ان الدكتور مندور ، أراد أن يقترب من عرين الأسد ويخاطبه مخاطبة الند للند ، فويل له اذن ولتنزل الحجارة الصم فوق رأسه ، ولتهب عليه الأعاصير ، فهل هناك من يجرؤ على الاقتراب من ملك الغابة ، وهو ما استحق هذا اللقب الا بقهر مناوئيه واستعراض قوته ، يقول العقاد : لا يمتدح الرجل باكبر من نسبة القوة اليه ، كيفما كان مذهبه في تفسيرها ، ولا يعير باكثر من اتهامه بالضعف كيفما كان مذهبة في تفسيره» .

هل عرفت اذن ان مفتاح الاعتداد بالذات ، ليس على اطلاقه وان هناك ما وراءه ، وهل عرفت اذن أن للاعتداد أنزاعا تبعد بعد السماء عن الأرض ، والصحة عن المرض . حقا ان العقاد موكول بضروب اخرى من الغرور بالنفس كما يقول ، ولكن على أي حال ليست هذه الضروب – في تفسيري – مما يبنى ، انها تريد ان تتركك صغيرا مكتفيا بعملية الاعجاب دون ان تهمس الى نفسك وتجلس معك ، لترتفع بك او معك على الأصح .

للعقاد في كتابه «معاوية بن أبي سفيان» بحث عميق عن القدرة والعظمة ، مؤداه ان القدرة غير العظمة ، فالقدرة طاقة يبلغ بها المرء مقاصده ، ويحتجب المنافع ويقدر على الغير ، إنها قوة وسيطرة . أما العظمة فهي شيء فوق ذلك انها قدرة وزيادة ، لانها تقاس بالمقاييس الانسانية العامة ، وبالخير الذي يعود على الآخرين ، والفضل الذي تكتسبه الانسانية ، انه لا ينظر الى نفسه بقدر ما ينظر الى غيره ، اللذة مشتركة والمتعة متبادلة .

ونحن اذا اقتبسنا هذه الفروق الدقيقة والذكية واستخدمناها في صقل مفتاحنا ، حتى نصل به الى الغاية ، ولا نضل الطريق ، وتقع في آبار اللصوص ونبّاشي القبور ، فسنرى ان العقاد قدير ما في ذلك شك ، قدرة تجلت في هذا النتاج الفكري الضخم ، والذي ينوء بحمله – بل هضمه – العصبة أولو القوة ، وسنرى ان العقاد صنف من الرجال لا يكافئه رجل ، ولن يتكرر كثيرا ، قَهَرَ كثيرا من المسلمات في عالم الأدب ، واضاف الى حياتنا الفكرية ما يظل أبد الدهر خالدا يتحدى ، كان الأديب قبله مُهانا فأصبح بفضله عظيما ، وكان ابن الشعب مبعدا فاصبح بقدرته يطاول الباشوات ويتجاوزهم ، وكان المثقف يخجل وسط الالقاب العلمية والشهادات الرسمية فأصبح بفضله ميزة فوق الشهادات والألقاب . كان وكان ، واصبح واصبح ، مما يضيق المقام عن سرده .

ولكن أية قدرة هذه ! إنها قدرة محسوبة لصاحبها ، لا تتعداه الا في الفائدة الكمية والعلمية . أين القيمة الانسانية التي يلقيها في روع القارئ ، والتي ما أن تمس نفسا حتى تحولها الى مثالها . مثل الشحنات التي يتمتع بها القديسون والمصلحون والانبياء ، والتي تغير الشخصية من اساسها . اعرف أن للفوهرر هتلر قدرة فائقة ، شغلت العالم ، وجعلت الناس في عصره يبهرون بشخصيته ، ويسبحون

باسمه وينجذبون اليه ، ولكن كل هذه القدرة القديرة لا تساوي قُلامة ظفر ، بجوار حرف من كاتب يدفع ويغير ، ويدعو الى قيمة انسانية تتعدى ذاته .

* * *

عرفت العقاد أول ما عرفته في كتاب عبقرية محمد ، فكنت هذا الطالب الصغير الذي يقف ماخوذا امام فيض المعلومات والعبارات الغامضة ، انني أريد أن أقترب الى نفسه انني احس ان هناك ومضات تأتي من بعيد ، وتشير الى نفس العقاد الصافية والى طفولة متوارية . ولكن ما باله يصدني عنه ، لماذا لا يجعلنا نتكاشف ونتجاذب اطراف الحديث ونسهم معا في تبادل النقاش ، هل كلمة معا تغضب بابا العقاد ؟ حين يتطاول بها لسان صغير؟ ان العقاد في كبريائه يضع بينه وبين القارئ فجوة ، تلزم كلا مكانه . فلا يتمرد احد على الحكمة الالهية التي جعلت الناس درجات ، فمنهم التلميذ والاستاذ ، والتابع والمتبوع ، كما ان منهم الغني والفقير ، والأمير والخفير . سر كراهيته للشيوعية أنها في ظنه تساوي بين الخامل والمشهور والجاهل والعالم ، والدهماء وأبطال التاريخ .

ثم ظهر الحسن بن هاني ، فانكببت عليه ، وعرفت في سيل من المعلومات النفسية ، ما أقدر حديثه عن النرجسية ! انه يحلل هذه الصفة بوعي لا يصدر الا من محلل نفسي ، وجعلت اتساءل : لم لا تكون النرجسية انواعا ، منها الهادئ الرقيق كهذا الذي يلاحظه العقاد في الحسن بن هانئ ، ومنها العنيف الوحشي الذي يقدس الذات ، ويفرضُ علي الغير تقديسها . فأن هذين النوعين علي رغم التباين الظاهري يرتدّان الى مصدر واحد ، وهو التمركز حول الأنا ، وجعلها محورا لكل الحركات والسكنات ، وعدم التسمع للذوات الأخر والمبالاة بآرائها .

ورحت أبحث عن الجانب الذي ينبغي ان يفجره العقاد داخلي . ذلك الجانب الذي يُعْنَىٰ به المفكر المسئول ، فيحيل قارئه الى مفكر مسئول أيضاً ، وكان اكثر ما يغيظني في بيئتي الصعيدية هو مجتمع الكبار ، الذي يفرض وصايته على الصغار ، ويحدد لهم كل شئ فلا يتحركون ولا يفكرون الا في طريق مرسوم . انني اكره الوصاية ولو كانت من ابي ، على الرغم من ان العادات والتقاليد والدين والغرائز والحاجة الانسانية ، تجعل الوصاية من الاب ، مبررة ومستساغة ولصالح الطفل ، ولكن ما بال هذا الرجل – وتلك هي الرعشة الأولى أذكرها بمصارحة ومكاشفة – يفرض عليّ وصاية من نوع جديد ؟

ربما كان هذا هو السبب في انني حين جئت الى القاهرة لم احضر – وتلك هي بداوة طفلية – ندوة من ندواته ، على الرغم من اغراء الأصدقاء ، وحديثهم عما يدور فيها من طرائف وأفكار ، وعن فكاهات العقاد وسعة صدره وحنانه وكرمه الصعيدي ، ولكن ما الحيلة وقد كنت اخشاه منذ الصغر ، واخشى هذا الظاهر ان ينقلب فجأة ، كما يتغير البحر دون سابق انذار ، رحم الله هذا الرجل

رحمةً واسعة ، فهو وحده العالم بما كان يدور في داخله من صراع . لا اذكره الا واذكر ابا فراس الحمداني ، وهو يتألم اذا جنّ الليل ، ويبكي كما يبكي الطفل ، انه يعاني صراعا ضاريا بين شوق ولوعة وهوى ، وبين صبر وتكتم دمع وارادة ، حتى لا يذاع لمثله سِرّ .

* * *

المصادر

آخر كلمات العقاد (جمع عامر العقاد)
أنــا
الحسن بن هانئ
ســارة
عبقرية محمد
عصاميون عظماء (نخبة من كبار الكتاب - كتاب الهلال سنة ١٩٥٤ م)
في بيتي
معاوية بن ابي سفيان
مع العقاد للدكتور شوقي ضيف



توفيق الحكيم

والراهب الذي ينتظر البشارة

مدت له اصبعا ورديا كأنه أشعة الفجر الندبة ، وهمست بصوت هو من ألحان متراكبة متداخلة كقوس قزح :-

- تعال ، أنت الذي وقع عليك الاختيار ، اتبعني .

فرفع الفتى الساهم رأسه ، ودارت عيناه الواسعتان في حيرة ، ونفض شعره المنكوش كأنه عصفور خرج من مغطسه ثم قال :

- من انت ؟ من انت ؟ أنا مرعوب ومجذوب . أخافك وأشد نحوك . من انت

- لاتسل فأنا شيءٌ لا يحدد ، أنا الذي من أجله هام الشعراء وترنم العشاق ، انا الذي من أجلي صبر الانبياء وضحى المتصوفون . انا ما إن أمسّ شخصا حتى ينسى كل شيءٌ عداي ، ويهيم في الوديان اثري ، ويلح في طلبي ، ولا يدرك مني الا قليلا ولكنه يلح ويلح انا قد اخترتك هذه المرة ، كما اخترت من قبلك اخناتون وسقراط وافلاطون والمجنون وابن الفارض . انت لي وستتبعني . هذا ما سيكون . هل فهمت .

- أووه ، فهمت وهذا ما اخشاه . ولكن معذرة أأترك اهلي وتلك المتع التي تحيط بي ، أأترك كتب القانون ؟ ابي يريدني أن أصبح دكتورا ، وأن اتبوأ منصبا كبيرا في القضاء ، أنها المتعة والشباب والمركز والمال . ان كل ذلك ينتظرني . ارجوك لا تفسدي علي حياتي ، اتركيني وشاني .

- ولكن هل تستطيع انت ان تتركني ، لا لن تستطيع انني على ثقة من مقدرتي فلتجرب . لست اكثر من بيجماليون ، ضحى بزوجته من أجلي .

- بيجماليون . . أووه . . ذلك المثال الاغريقي ، كم انا أحبه . أنا مصغ اليك ، كلي آذان . قصي علي قصته ، فانا لا اشبع منها . لقد أقام لزوجه تمثالا من حجر ، واذابه ينشغل بهذا التمثال عن امرأته . آه معذور . جذبه الجمال فنسي الواقع . تذكرت قصته ، اليست هي قصة المجنون الذي هام في الفيافي ، ينشد الاشعار ويصادق الظباء ، وهي قصة سقراط الذي كان ينتظر في المعبد الاشارة الالهية ، وهي قصة بوذا الذي كان يسعى الى النيرفانا فاذا سئل عنها قال انها حالة من الصفاء والسمو الروحي . اووه فهمت الآن كلامك الملغز . كم هو ممتع هذا الكلام الملغز . اني مصغ اليك . فاحكي لي القصة بل القصص ، فإنني لا أمل سماعها وتكرارها . وانني منتظر . وساؤجل لقائي مع فتاتي الجميلة ، فلتنتظر ساعات على هذا المشرب الجميل تحتسي البيرة . لن يضيرها ذلك في شيءٌ ، ربما تجد آخر يشاركها حديثها ، أعرف انني ممل لها ، أجلس ساكتا ابكم ، انني افضل فتاة بيجماليون ، فصوتها مزيج من ألحان متراكبه والوان متداخلة ، واصبعها كأنها أشعة الفجر الندبه . اسمعي ألا تصغين : هذا همس . هذه نغمة ناي من بعيد ، هذا شيءٌ شبيه بالملاك الصغير الذي نجده في رسوم مايكل انجلو . الاترين هذه الهالة من النور ؟ رأيت مثلها في صحن مسجد السيدة زينب . وهنا في

باريس في سقف كنيسة . إن بيجاليون رأى في تمثاله . . . .
– رويدك . . أين أنت ؟ هل نسيت نفسك . نسيت ترددك وتهديد أبيك ، وانتظار الأهل واغراءهم لك بالزوجة الجميلة والمنصب الكبير . ألا تذكر ولو لحظة ان بيجاليون حطم تمثاله ثم حطم نفسه . . . .
– لايا معبودتي وفاتنتي وكل شيءٌ في حياتي ، لاتهمني النتيجة ، ولايهمني جنون بيجاليون ولا قلق الأهل ، كل شيءٌ يمكن ان ينتظر . كل مايهمني تلك اللحظة التي أصغي فيها اليك ، تلك الرؤى التي أراها تتخايل كلما ظهرت لي . . انتظري وليحدث بعد ذلك مايحدث .

* * *

ووقع الاختيار على توفيق الحكيم ، ومسته عصا الفن ، فاذا هي تلقف كل شيءٌ في حياته ، اصبح تابعا لها وراهبا في معبدها . من النظرة الاولى يبدو للرائي أنه احد عباد الفن بلباسه الأسود ، ونظرته الساهمة ، وهيامه وراء المطلق ، تراه العين ساهما واجما في مونمارتر او في الحي اللاتيني ، فلا تشك لحظة في أنه واحد من هؤلاء المجذوبين في هوى الفن . راته خادم الاسرة التي عندها اول عهده بباريس ، فرأت شعرا منكوشا ، وعينين تشبهان أعين أهل الاساطير ، وشفتين كأنهما شفتا ساحر زنجي ، فجرت مرتاعة نحو سيدتها .
– أتدرين يا سيدتي من حل بدارنا ؟
– من ؟
– انه الشيطان .

أغراه الفن وكأنه التفاحة المحرمة ، التي اندفع لقطفها دون اعتبار لأي شيءٌ ، كان يترك ملذات الحياة في باريس ، ولم ينطلق كغيره من الشبان وراء متاع الدنيا ، انغمس في الكتب والمتاحف والموسيق ، وجد فيها حياته الخصبة ، انها الحياة الحقيقية من ذاق طعمها لايسلوه آه الخيال . . . هو ليل الحياة الجميل . . . هو حصننا وملاذنا من قسوة النهار الطويل ، اما الواقع فهو حياة باردة شوهاء ، لاخصب فيها ، وانها تقليد لعالم الخلود والحقيقة . انها كجدار كهف يعكس على حوائطه ظلال واشباح العالم الحقيقي ، وان عبقرية الشرق في انه تخلص من الزمن ، ومن العيش في الحياة من اجل الحياة ، انه يتشوق الى عالم آخر يعطي لعالمه قيمة وغاية ، اني شديد الاعجاب بانبياء الشرق . . ان المعجزة الحقيقية التي جاءوا بها هي انهم قدموا للناس عالما آخر ، عامرا بسكان من ملائكة ذوات اجنحة جميلة بيضاء زاخرا بجنات ، فيها أنهار من التبر وأشجار من الزمرد ، واعداً بنيران تتأجج بلهب أزرق ، كألسنة الأبالسة الهائمة كالخفافيش ، في هذا العالم استطاعت البشرية ان تعيش حياة اغنى واحفل من حياة الواقع [١] .

* * *

(١) عصفور من الشرق ص ٨٦

تقرأ سيرته في باريس فتحس انك امام راهب ينتظر البشارة ، قلق وتشوق وبحث عن طريق اندرية . . أندرية . . كيف السبيل يا أندريه ، إنه يعاني ويتألم وكأنه في حالة مخاض أو في حالة ارهاص اني اتألم ألما لايراه أحد ، اذ لايظهر على وجهي شيءٌ غير هدوء الرضا ، هنالك دودة دائمة الوخز دائبة النخر في قلب هادئ المظهر رائع المنظر .

كان يحس انه صاحب رسالة ، ينظر الى الفن نظرته الى الدين . فهما يهديان الى غاية واحدة وان اختلفت الوسيلة ، هي تطهير الانسان اوالارتفاع به الى حياة الصفاء والسمو ، ويغترفان من النبع الصافي ، الذي اغترف منه اخناتون وبوذا وموسى وعيسى ، وجذب كذلك قيسا وعروة وابا العلاء ودافنشي ومايكل وفان جوخ ، انه حين يسمع السيمفونية التاسعة يتجرد ويستعد وكأنه في محراب عباده ، وحين يردد الكورس في الحركة الاخيرة :

قفوا متعانقين
أيتها الملايين من البشر .
أيها الأخوة
ان فوق النجوم أبا
حبيبا الى كل القلوب .

حينذاك يخيل له أن أستار السماء قد انفرجت «ليصل الى آذاننا غناء الحور والملائكة مجتمعين في جنة الخلود يلقون نشيد الفرح ، ذلك القدس الالهي ، فرح الانفس التي تعيش في الله» .

فهو يترك كل الظواهر والطقوس ، ولاتخدعه الفروق السطحية ، ليتعلق بالجوهر ، بالشيء المشترك الذي يتخفى وراء الفن والدين والحب والجمال والمعرفة ، هذا الشيء الذي يحس به امام ضريح السيدة زينب ، ويحس به حين يحملق في وجه سوزي الجميل ، وحين يصغي الى بيتهوفن او فاجنر ، وحين يسير بين أدغال الطبيعة وحين يدخل متاحف الرسم ، وحين يستمع في الأوبرا الى غناء . .

قـــلبي يـــتـــفـــتح لصوتك كما تـــتـــفـــتح الأزهـــار
لقبلات الصباح

وهذا الشيء هو المعيار الحقيقي لكل حضارة ، فبدونه تصبح مسخا لا طعم لها . ان ازمة أوربا في نظره انها فتاة شقراء أنانية ، مغرورة بنفسها لاتنظر الى أبعد من موقع قدميها ، وتعيش حياة واحدة ، ان حضارتها قاصرة وليست متكاملة . على خلاف حضارة الشرق التي يتكامل فيها العلم والدين ، ويتجاور فيها عالمان ، عالم الواقع المباشر ، وعالم ماوراء هذا الواقع .

* * *

فالحكيم اذن كاتب خلقي ، وصاحب رسالة يرنو الى أن يصحح مسار التاريخ ، الذي اندفع نحو المادة وغرق في المظاهر ، وتناسى الحياة الحقيقية الخصبة ، فتحول الآدميون الى آلات ، والعمال الى رقيق من نوع جديد «إن العلم تلك الماسة العظيمة المتألقة لم تضعها اوربا في قمة عمامتها ، لتشع نورا وجمالا ، ولكنها وضعتها في سن مخرطة بخارية ، لتقطع بها زجاج الكأس العظيم ، كأس البشرية الممتلئ بماء روحها ومادة جسدها» .

ومن ثم يركز الحكيم على مايسميه «الرمز» وهو الذي يعطي الحياة البشرية انسانية ومعنى ، ويمنحها الوجود . يقف النائب أمام جثة في مشرحة فلا يحس بشيء ، انها كعود حطب أو قطعة خشب ، لانها فقدت رمزها الذي يجعلها تفترق عن المادة . وهذه الجموع الكثيرة في رواية عودة الروح ، تصبح ذات تأثير ومعنى حين تلتقي برمزها ، وتلتف حول معبودها انها حينئذ تفعل العجائب ، ولايقف في طريقها شيء .

وهو لانه يرى المأساة بعين النبي أو بعين الفنان – فالصفتان عنده تتقاربان – ينذر قومه ، وقومه هنا لايحدون بحدود جغرافية ، بل انهم الانسان على وجه الأرض وقد ظل طريقه ، وجرفته الحضارة المادية بعيدا عن المجرى الأصيل . ومن ثم نجد عنده الحماسة وقوة المشاعر ولكن أية حماسة ؟ بكل تأكيد ليست حماسة الأناشيد والعبارات التشنجية ، بل انها الحماسة التي تأتي من الصدق والبساطة ، والاحساس العارم ، والتفاني في الهدف ، والاقتناع بالفكرة ، باختصار هي حماسة الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين .

هو اذن كاتب ديني بالمعنى الرحب ، يغترف من النبع الذي تغذّ نحوه الانسانية سيرها الدائب . منذ ان زين الانسان الأول مدخل كهفه بسعف النخيل ، وزخرفت المرأة معصمها بأنواع من قشور السمك والصدف ، الى ان اتخذ ذلك مظاهر كثيرة ، فالعالم الذي يلهث وراء بحوثه ، والراهب المتخفي في صومعته ، والضارع الذي يهز أستار الكعبة ، والعاشق الذي يفر الى الصحراء ويصادق الذئاب والظباء معا . ان كل هؤلاء يغترفون من نبع واحد ويجدون في طلب ليلى . . وليلى ليست هي العامرية السمراء ، بل هي امورشتي هي الله عند الصوفي ، وهي الجمال عند العاشق . وهي هيلين عند فاوست .

ومن ثم فهو ينفر كل النفور ، من هؤلاء الذين يريدون ان يحبسوا المطلق ، وأن يحددوه داخل مراسم وطقوس تذهب بسموه وصفائه ، يضيق بالطبيعة المحفوظة وبمظاهر البذخ والثراء في المساجد والكنائس لماذا اراد الناس ان يجعلوا الله في حاجة الى السجاجيد الفارسية يفرش بها بيوته ؟ والسيدة في حاجة الى النذور و (الثريّات) والشمع كأنها لاتستطيع النوم في الظلام . ثم ذلك القمقم الفضي في الكنيسة وتلك الاشارات والعلامات ، لماذا كل هذا «انه يريد ان يلتقي بالجوهر . وهذه الاشياء تضع

غشاوة على البصيرة ، فلا تهتدي الى هذا الذي يلوح من بعيد ، والذي لايقبض عليه الا من كرس نفسه ، وعرف الوسيلة بالمعنى الصوفي ، الذي يتمثل في الزهد والقناعة ، وتجريد النفس ورياضة الجسم . كان الصوفيون يتخيرون مريديهم ، فليس كل انسان يحتمل الاقتراب من هذا النبع ، يخشى عليه اذا كان غير مهيئ من اثر الشربة ، وكذلك ربة الفن تتخير من بين الملايين افرادا تنفخ فيهم بالسر ، فإذا كل شيئ يهون واذا هم ثمالى بخمر ليست كخمور الدنيا .

وقد ذاق الحكيم خمر تلك السعادة ، فتطوح في محرابها ، وأصبحت هي الحقيقة وهي عالمه ، انه يهتم قبل اي اعتبار بالصفاء الداخلي وبالتطهير النفسي ، انه يعتقد دائما ان الزاهدين الحقيقين ليسوا الا اناسا لهم نفوس كالفراديس . تشقها الانهار ، وتنيرها الشموس ، وتتلالأ فيها الكنوز ، فهم عالم من الفتنة والسحر لانهاية لبدائعه وأسراره .

ان الحكيم يبدو في «زهرة العمر» وكأنه في حالة ارهاص وانتظار للبشارة ، كان يبحث عن الشيئ الذي يهجس في داخله ولم يتحدد بعد ، كان كأنه ينتظر الالهام ويحاول ان يتصل بالسماء . وكانت السيدة زينب هي حاميته وملاذه ، كان يراها بين صفحات كتبه وكانت تجفف بأناملها النقية دموع حبه وتخفف آلامه ، كانت دائما تخف اليه حين تلم به الشدائد «ولو شعر محسن لحظة انه في وحدة مطلقة وان السماء ليس لها وجود ، وانها جرداء وجدباء غير عامرة بكائنات اخرى تتصل حياته بحياتها ، وانه قد خُلّي بينه وبين هذه الأرض وحدها الى الأبد ، لما عرف كيف يستطيع تحمل الحياة يوما واحدا» .

كتب الحكيم كتابا حواريا عن محمد صلى الله عليه وسلم . فاذا به يصوره في مرحلة القلق والانتظار . انه يحس اشياء تنتظره ، انه يسمع اصواتا تناديه : يامحمد . . . يامحمد ، فينطلق هاربا في الأرض ، انه يخلو في غار حراء الليالي ذوات العدد ، يتعبد ويبحث عن طريقه حتى يجيئه الوحي وينزل عليه القرآن ، حينئذ يعرف طريقة ويترك خلوته ويندفع يبلغ الرسالة ويقابل الصعاب ، بنفس مطمئنة ، يجد سعادته في الآلام ، وقرة عينه في الصلاة ، ويدخل الغزوات والحروب والمجادلات ، وهو في منتهى النشوة والتفتح . يتهمونه أن مابه رُؤى من الجن ، أو لوثة شيطان فلا يبالي . لقد وجد طريقه ، وكفاه عذاب الحيرة والانتظار ، كان ينزّ عرقا ويتفصد ، حين يُلمّ به الوحي . وكان اذا تباطأ عليه يشكو ربه في حرقة وألم «اي رب : اليك اشكو بلائي . اي رب ابعث الي وحيك . . أي رب : أنسيتني ؟ اللهم اني لفي بلاء . اللهم اني لفي بلاء» .

وأخيرا وبعد عذاب عرف الحكيم طريقه واهتدى .

لقد ظل في باريس أكثر من عشر سنوات يبحث عن طريقه ، ولم يكن البحث عنده عن أسلوب في الأدب فحسب ، بل كان البحث عن طريقه في الحياة ، فالفن عنده ليس ترفا أو مهنة او هواية ، هو رسالة وحياة (عزيزي اندريه . . حقا انت تفهمني . وهل تقدر ما انا فيه ؛ انها دائما حالة القلق

والبحث والتنقيب عن الأسلوب . لكن انتظر : ماذا اريد ان اقول ، هل لي الحق أن أتكلم في الأدب ؟ مع ذلك انقطع شكاً وقلقاً وبحثاً ، يا صديقي اندريه لاعن اسلوب الادب وحده بل عن أسلوب حياتي .)

ووجد ضالته واهتدى الى طريقه . انه يقول في عبارات تمتلئ ايمانا وحرارة ، كأنها صلاة المتبتلين ، عبارات ينهي بها كتابه . زهرة العمر فينهي مرحلة من حياته ليستقبل مرحلة العمل والجهاد «يجب ان أومن بالفن ، الايمان بالفن هو التعويذة التي تفتح لي الطريق ، اني اومن بأبولون ، أو من بابولون ، اله الفن الذي عفّرتُ جبيني أعواما في تراب هيكله ، إنه يعلم كم جاهدت من اجله ، وكم كافحت وناضلت وكددت ، باسمه اخوض المعركة الكبرى ، وانازل كل مجتمع وكل حياة ، وكل عقبة تحول بيني وبين فني الذي منحته زهرة ايامي التي لن تعود» .

وهذا لا يعني انه غير ملتزم . انه ملتزم واخلاقي بالدرجة الاولى . ولكن الالتزام عنده لا يعني الوقوف عند نصوص مذهب أو برنامج حزب ، لان هذا يحد من فيض الفنان .

الالتزام لا يخضع لعنصر خارجي ولكنه الشيْ الصادر من الداخل كهاتف او كنداء ، والكاتب يتسامى عن لعبة السياسة ليكون كالحكم النزيه «هو الذي يحصى الاخطاء بغير تمييز ولا تحامل ، وهو الذي يفضح ستر الخارجين على أصول اللعب القويم ، وهو الذي ينبه الغافلين الى كل خطر يدنو من قواعد المثل العليا» . ان الفن يتوحد مع الفضيلة انهما يرتدان في نهاية الامر الى منطقة الهدوء والسلام واحتضان العالم ، كان بيتهوفن يتجول في الغابات الخضر ويصيح من اعماق قلبه (يا رب الغابات . يا ربي القدير على كل شيْ ، اني احس البركات وأشعر بالسعادة في هذه الغابات . هنا كل شجرة من هذه الاشجار تسمعني صوتك يا لها من روعة ايها المولى العظيم . هذه الاحراش وهذه الوديان تفوح برائحة الهدوء والسلام ، هذا السلام الذي لا بد لنا منه لنستطيع ان نفنى في خدمتك) ويكف الحكيم عن قراءة هذه الفقرة ويقول في تأثر شديد «لكأن عبيرا يعرفه يهب من طيبات هذه الكلمات . ان هي الا كلمات من النبع الذي صدرت منه كلمات انبياء الشرق[1]» .

* * *

عجباً ! كان لقائي الاول مع أدبه لقاء محفوفا بالمصادفة والنزوة الطارئة ، كنت وقتئذ منكبا على قراءة قصص الانبياء وسير الصالحين وكرامات الاولياء ، حتى اكتظظت بها ، فجعلت ابحث عن الروايات الرومانسية والعاطفية والقصص المترجمة وكتب ارسين لوبين اللص الظريف ، وذهبت الى صديقي بائع الكتب القديمة ، فاعطاني كتابا على غلافه «اهل الكهف : توفيق الحكيم» واقرأ الغلاف لأجد على الصفحة الداخلية اقتباسات دينية ، اوواه ياحظي ! اهرب من تلك الكتب لاجدها امامي ، ومن هذا المتحذلق الذي يستتر تحت لقب الحكيم ، اما شبعت من الحكمة والقاء المواعظ من

(١) عصفور من الشرق . ص ٧٧ .

لقمان الحكيم ، حتى اجد «حكيما» اخر يصر على استخدام هذا اللقب ، فرددت الكتاب الى صاحبه وكلي خجل امام حماسته وهو يقدمه لي .

ومصادفة أقرأ بعد ايام اعلانا عن عصا الحكيم بقلم «توفيق الحكيم» ، ان هذا العنوان ظريف ، وان هذه الصورة لتوفيق الحكيم جذابه ، «كاسكيت» ترقد باطمئنان على رأسه ، ونظارة تنحدر وكأنها تتقلّب ، وخطوط تتقاطع على جبينه ، وعينان تمتلئان رعبا وفزعا ، وشعيرات تنمو تحت أنفه في غير نظام وبلا مبالاة ، وكأنها حشائش خشنة تطلع في أرض بور ، تستكين لحظة امام ريح لترتفع في حدة ، وما هذه البسمة التي ترف على شفتيه ، تمتد وتتسرب الى كل ملامح وجهه أنها ساحرة ومريرة ومتألمة ، وما هذا الهدوء العجيب الذي يملأ جو الصورة ، وهو يعتمد بذقنه على تلك العصا السحرية . وقرأت الكتاب . الله : هنا حكمة . هذا حق ، ولكنها تختلف عن كل ما قرأته . لا تحذلق ولا سماجة ولا تعالم . هنا نظرة واسعة لا تدعي الوصاية ، تحتضن العلم والدين والفن ، وتلف الثمار الدسمة في ورق مفضض ومذهب يغري بالقراءة ، الله ! وما هذه اللغة ، انها تختلف عن كل ما قرأته فكل ما هنا سهل ميسر ، وكل ما يهم الحكيم أن يصل الى اعماق القارئ ويهزها ويعقد معه صلة صداقة وألفة . وجريت الى صاحبي بائع الكتب القديمة . فوجدت (أهل الكهف) مكانها في ركن مظلم ، فاحتضنتها وكأنني اعتذر ، لست اذكر عدد المرات التي قرأتها . ولا تزال عندي هذه النسخة المهرأة اعاود القراءة فيها ، وكأنها تحمل سرا ، ويفوح منها شذا شخصيات أليفة . ان هنا شيئا جديدا في الأدب العربي ، هذه الفلسفة التي تحتضن الكون ، وتطرح قضايا عن الزمن والخلود ، وهذه الشخصيات التي تتصارح وتتطارح ، وهذه الاسطورة عن الفتى الياباني ، وهذا الانتقال بين الواقع والخيال وقضايا الحب . . . . و . . . . . . و . . . . . انني مفتون بك ايها الحكيم الذي قد ظلمتك . واعاود النظر الى صورته ، آه فهمت سر هذه البسمة انها لي شخصيا . آه انني لم افهمها بعد ، انها رغم بساطتها مليئة بالاسرار والاحاجي والعناء ، وهذه الشعيرات تحت ذقنه . مسكينة قسا عليها الدهر ، وهذه العصا حبيبته وملاذه ، انها تحوي السر الاعظم ، ليت لي بمثلها . هنا نجاح . الكاتب انه يدفع الى الطموح والتغيير ، وينفخ في قارئه حرارة رسالته ، فيصبح صورة منه أو هو يحاول ذلك .

* * *

وأخيرا وأولا هذا الحوار ، انه رسالة الحكيم التي اهتدي اليها وكتابه الاعظم ، آه ، الحوار هذا هو الشئ الذي كان يبحث عنه الحكيم ، وننتظره ويقلق من أجله ، هنيئا له عرف طريقه . فلتقرَّ عينه ، لا تهم الصعاب بعد ، رغم كثرتها وضراوتها ، انها لن تبلغ شيئا بجانب الآلام التي كانت ، قبل أن يهتدي الى غايته ويحيئه الالهام «عزيزي اندريه لطالما اشغلتك معي بالحديث عن الاسلوب الفني ، الذي ابحث عنه ، أين أجده اخيرا ؟ وقع ذلك في وهمي انه قد يكون على مقربة مني دون ان

اشعر ، لِمَ لا يكون هو ذلك الحوار ، الذي انفقت في ممارسته وقتا طويلا ؟ انه القالب الذي بدأت ممارسته كما تعلم ، قبل نزوحي الى اوربا ومن اجله انصرفت حتى عن الكتابة السياسية المحترمة في نظر اهل بلادي ، لا يمكن ان يكون هذا الوقت والمجهود قد انفقا عبثا . . . لم لا تقول ان الحوار هو أسلوبي الذي أتحرق بحثا عنه ، لقد كان هو كما تعلم الناحية التي استرعت نظر من اطلع على مخطوطاتي في فرنسا من أدباء وفنانين . . . آه . . لو امكن ادخال الحوار قالبا ادبيا وبابا مرعيا في الادب العربي» .

كل شيءٍ يهون بعد ذلك . فقد عرف الطريق ، وحدد الهدف ، ووصل الى الوسيلة فاندفع بكل حماسة وكل إصرار الى توصيل رسالته ، لا يثنيه عن عزمه النظرة الى «التشخيص» ، واعتباره مضيعة للوقت والكرامة . . حتى نجح وتأصل في الأدب العربي من جديد .

* * *

وبنجاحه أصبح هناك فاصل بين عصرين :

عصر العناية بالاسلوب والاهتمام بالزخارف والدوران في حلقة الجمال الذي يعتمد على الثياب الخارجية .

وعصر يخلق عالما جديدا ابداعيا ، كله شخوص وحركة ، عالما هندسيا من ورائه عقلية رياضية ذهنية «تعتمد على الحركة الداخلية للفكر والنفس ، اكثر من اعتمادها الحركة الخارجية للمواقف والعواطف» كما يقول . ويغلف كل ذلك بساطة في المظهر وتواضع في الاداء ، فالبلاغة الحقيقة هي «الفكرة النبيلة في الثوب البسيط ، هي التواضع في الزي ، التسامي في الفكر . كذلك كان اسلوب الانبياء في حياتهم انظر الى محمد وعيسى على وجه الخصوص بساطة في اللبس وتواضع في المظهر وسمو في الشعور والتفكير[1] » .

تلك هي باختصار قصة رجل اخلص للفن وسيظل مخلصا له حتى أنفاسه الاخيرة ، وكل أمله ان يحقق ما وضعته الاقدار بين يديه ، وكله خشية وقلق الا يستطيع ان يفضي بكل ما بداخله فالفن طويل والحياة قصيرة «كما قال جوته ، ولديه او لديهما الحق فالفن جذوة لاتهمد ، يقول الحكيم» اني اتمثل الفنان في نهايته قد دخل عليه عزرائيل ومعه ابولون ، عزرائيل يقول له أنك انتهيت ، وابولون يقول له انك لم تنته من عملك بعد[2] .

* * *

قالت العصا : هذا الحالم الهائم المدعو «توفيق الحكيم» ، ظل طيلة حياته يلهث وراء «أبولون» ، وظل يحدثني عنه ، حتى اوجع دماغي . ترى هل منحه «ابولون» بعض أسراره . أريد ان اعرف ،

(١) زهرة العمر ص ١٢١ .
(٢) يا طالع الشجرة (المقدمة) .

وأريد أن أعرف ايضا . . . .

فقلت : كفى كفى . . . هل بدأت تتمردين على صاحبك ، بعد هذه العشرة الطويلة ، ان الحاحك في طلب المعرفة ، والقلق الذي يبدو عليك ، هو نتاج غرسه . اعرف انه قد خدعك بحديثه عن انه لم يقدم شيئا ، وانه سيظل طول عمره يقلق ، وينتظر فن ابولون ، تلك هي «شهوة» الفنان يا عزيزتي ، التي لاتخمد ، ولكنه بمقاييسنا العادية قدم الكثير والعظيم ، ولو رحت اسرد لك ما قدم لضقت بي ، وانت فيما يبدو سريعة الضيق ، تضيقين من صاحبك هذا على الرغم من حديثه المفضض المذهب ، فكيف بحديثي وانا لا املك سحره ، اخشى ان تتحولي في هذه الحالة الى عصا مؤدب . . يكفي انه انطقك بهذا الكلام ، وقد كنت قبله صماء بكماء كما انطق اخاك الحمار – ولا مؤاخذة – بحديث يحسدك عليه الساسة . . اذكر انني سمعتك مرة تتحدثين عن . . . .

قالت العصا : . . . . اووه لقد ذكرتني ، قلت له مرة في خلوة شيئا من نوع الكلام الذي عداني به ، لعلك قرأته فهو لا يكتم لنا سرا ، ولا يستريح باله حتى يذيع مناجاتنا ، كأنه يقلقه ان يكتمه قلت له مرة : «يظهر انه لا جهد يضيع عبثا في هذا الوجود ، حتى جهد أولئك الذين اضاعوا حياتهم في الاحلام ، لعل الناس في ذلك ينقسمون الى فئتين : فئة تعيش مع حاضرها ، وتندمج فيه وترضع وتعتصر ثمراته ، وتلتصق به التصاقا شديدا في خيره وشرّه ، فاذا ذهب ذهبت معه ، وفئة تخاصم حاضرها ويخاصمها فلا تندمج فيه كل الاندماج ، ولا تلتصق به كل الالتصاق ، فاذا ذهب لم تذهب معه ، وبقيت الى زمن اخر وعصر اخر . . . .

* * *

المصادر

أهل الفن
أهل الكهف
تأملات في السياسة :
حمار الحكيم
زهرة العمر
سجن العمر
عصا الحكيم
عصفور الحكيم
عصفور من الشرق
عودة الروح
فن الأدب
مجلة الهلال (عدد خاص – فبراير سنة ١٩٦٨)
محمد
من البرج العاجي
يا طالع الشجرة
يوميات نائب في الأرياف



يحيى حقي

وفيض الكريم

هو يذكرني بصانع ماهر في خان الخليلي ، «ابن كار»[1] ورث ذلك أبا عن جد ، فباحت له المهنة بسرها ، الذي تحتفظ به منذ آلاف السنين وعبر كثير من الأصلاب والنطف ، سبحان الخالق في شئونه ، يترك الآلاف والآلاف ثم يقف عند هذا الصانع الشيخ ، صموت لا يرفع رأسه الا بقدر ، يطعم التحف بالأصداف ، صدفة على صدفة ، وصدفة فوق صدفة ، حتى يكون هذا الطبق المدور ، او هذه العلبة المزركشة ، ثم يركنها الصانع ، واحدة جنب الاخرى ، بل ربما الواحدة فوق الاخرى ، من غير حرص على التزويق والترتيب ، ومن غير حرص على «فترينة»[2] مضاءة بالالوان ، ويضع داخلها (عروسا)[3] متحركة لتجذب الانظار ، اهتدى بغريزته التي توارثها خلال الأصلاب والنطف ان التنسيق قد ينفّر الزبون ، لأن زبونه من نوع خاص جاء هربا من التنسيق واسترواحا لروح الشرق ، يدفن فيه تعبه وأرقه ، فالاسطى يدرك ان الزبون يجد في هذا الاهمال شيئا من الجاذبية ، لا توفره الفترينات المضاءة ولا العرائس «البلاستيك» ، التي تقفل وتفتح عينها ، هو يكتفي بوضع «لافتات» في محله ، تقرأ فيها حين تقدم ، وقبل أن تفتح فمك بكلمة عبارات : الصبر مفتاح الفرج – الشكك[4] ممنوع والزعل مرفوع والرزق على الله – ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب – خليها على الله . يجد في هذه العبارات راحة نفسية ووفاء لأجداده ، ويأتي زبونه السائح من بلاد باردة منسقة وكثيرة الأضواء ، ويتوجه نحوه يترك شارع عماد الدين وشارع فؤاد – كما كان عن عهده – وشارع الشواربي – سوق الشهرة والاضواء من شارع فؤاد حتى للشوارع أيام عز وفقر – حكم وماله يقف عند هذا او ذاك وهي أشياء مستوردة من بلاده ، بل ربما تحس بالغربة هنا ، وانها لا تستطيع التريث فوق أجساد مندفعة تُلهبُها الحرارة ، وتتحرك ببحبوحة وتمديديها (على كيفها)[5] ، وتتكلم على راحتها . ويسأل السائح الدليل عن خان الخليلي ويقوده الى الصانع الصبور «اللي رمى رزقه على الله» ويقف السائح وقفات متأنية ويستخرج الأشياء المركونة باهمال مقصود ويجد فيها الجديد : هي اشياء لا يجدها في بلده لو حمل منها الى أصدقائه وأحبابه يستمتعون . ويحسدون صاحبهم على رحلته الى بلاد العجائب ويمصمصون الشفاه – بالتعبير الشرقي فالمصمصة والقرقعة لا يعرفها الا اهل الشرق – شوقا الى رؤية هذه الأشياء في مكانها ، ولست اذكر أين قرأت عن فنان أوروبي يحتفظ في متحفه (بعروس المولد) ويقدمها للزوار كتحفة من بلاد الشرق .

أو هو يذكرني بكبير قوم – ولا كل من لبس العمة خال – يجلس القرفصاء للتدفئة وحوله أبناؤه

---

(١) ابن كار : صاحب صنعة توارثها عن اهله فهو يتقنها . من بقايا الالفاظ الفارسية في اللهجة المصرية ، مثل (شربات أو شربت) .

(٢) فترينة : كلمة فرنسية تعني واجهة للعرض في المحلات . (La Vitrine) .

(٣) عروس : هنا يعني بها لُعبة .

(٤) السكك :

(٥) على كيفها : كما تشاء . عاميّ مصري وشامي .

وأحفاده يلقون في النار بعض الهشيم ويلغطون ويثرثرون ، يبدو أنه لا شأن له بهم ، ولكن ما لهذه الإبتسامة الماكرة الغامضة الحويطة لا تفارق شفتيه ، إنه يتدخل في الوقت المناسب وباسلوب المراوغ فيدلي بكلمة لهذا ؛ او ذاك تبدو عادية وبلا رنين ، ولكنها مترعة بخبرة الدهر ، لعل هذا الكبير الذي يحرص في قريته على حضور صلاة الجماعة في الجامع العتيق ، وعلى حفظ الأوعية والأوردة وشهود الجنازات وتقديم الواجب ، يدلف – ويحيى حقي يضيق بهذا الفعل المضارع الذي يرد كثيرا في قصص الشبان – يدلف الى هذا المكان أو ذاك فتكون له جلساته التي تختلف عن جلسات الأبناء والأحفاد ، لانها جلسات أنس – يا أنس – يقضي فيها حاجات القلب – وللقلب حاجات ما ضرها لو قُضِيَتْ – واحيانا يغيب هذا الكبير عن مجلس قومه شهوراً أو سنين ، ويذهب الى أماكن أُخَرَ بعيدة ، يعبر البحر أو يعبر الدردنيل ، ثم يأتي هادئا ، إنه – ولله الحمد – هو هو لم يتغير ، ويجلس الى قومه بلا تفاخر أوتعاظُم، ثم يحكي لهم في فيض الكريم ، ولكن انظر الى هذه الابتسامة ازدادت تعبيرا ، وامتدت الى العينين فعشعشت فيها ، وكأن صاحبها قد أراد – لفرط حبه – أن يطبق على كل ما تراه في الدنيا ، ويركزه داخل محجريه ليقدمه نقطة نقطة ، وفي الوقت المناسب الى أبنائه وحفدته[٦] .

أو هو كتاجر دمياطي ، ينصرف الى وضع زخارف فوق الموبليات ، يأتيه الزبون فلا يندلق عليه – سر المهنة يا عم – بل يتريث ويرفع رأسه بحركة محسوبة ، ثم كلامه حسب الزبون فلكل زبون كلام ، مر عليه مئات ومئات ، فهو يعرف من أين تؤكل الكتف ، هو خبير به وعارف – والمعرفة تريح – ان كان سيشتري أو يتفرج ، ان كان عجلان أو متمهلا في نظرة الزبون ولمعة عينيه ومن حركة يديه فوق جبينه ، ما يوحي لهذا التاجر بأشياء كثيرة ويخفيها تَحت ابتسامته ، ووفقها يفصل الكلام . أول فقرة لم أعرف مثل يحيى حقي في وزن الكلام وتفصيله ، على حسب المتكلم وحسب الموقف ، لا تجد في كتبه هلهلةً ولا ضيقاً . اللفظ محسوب ، الجملة موزونة كانه يخشى التوريط ، فعل الديلوماسي الذي يخاف التأويل وتحميل كلامه أكثر مما يحتمل ، وهو في حديثه يختلف من شخص الى شخص . مع المشايخ صاحب عمه متبحّر يتكلم بلغة دينية ، ومع المتفرنجين رجل عاش في اوربا وعلى آخر موضه ، ويختلف تعبير وجهه في الحالتين ، بيْن اصطناع الجـد والتجهم وتعبيرات الانطلاق ، هل يمسك العصا من الوسط ، ألا يدري من هو ؟ لا تتسرع ولا تقف عند القشرة الخارجية . فض كل هذه الظواهر . فلن ترى أصلب منه ، ولن يحيد عن رأيه ولكنه يطب له . إن صلابته ليست يابسة لابد ، لها إذا انكسرت ، ولكنها صلابة الحديد المطاوع . مالي – سامحني المولى – أستحضر صورة القط يتربص لفأر ، لا يشم رائحته الا يظل فترة طويلة منكمشا متحفزا متناوما ، حتى يحين الوقت فيثب على الفأر ، بفكيه ويقبض على غنيمته ، بينما كثير من القطط (الذواتي) تتمتم وتمسح شعرها وتنعم بشمس الشتاء الدافئة .

---

(٦) حَفَدَة : مفردها : حافد . وهم الخدم أو الأعوان ، وقيل أولاد الولد ، وهو المراد هنا .

أو هو كبائع العرقسوس يتجول بعد القيلولة في حي السيدة زينب ، نظيف ، يلبس أبيض ، يترقرق عرقسوسه الشبيه بطمي النيل في آنيته الزجاجية الصافية ، يدق بصاجه بين الحين والحين ويضرب على آنيته ، فيكون له صوت لا يضيع في الميدان ، لانه يتعاون – والفضل في ذلك للفطرة – مع أصوات أخر على تجسيد روح المكان سيمفونية تختلط فيها أصوات شحاذي السيدة ومحاسبيها والباعة المتجولين والدروايش وأهل الريف ، لا تجد – مهما جد بيتهوفن – أصدق منها في التعبير عن المكان وابراز روحه الذي حل فيه منذ مئات السنين فهي مقيمة لا تغادره ، يتنبه له من أُوتيَ صفاء النفس ، وحملته هذه المظاهر الخارجية الى عناق السر الخفي ، والتمسح بأعتاب أم هاشم ملاذ (الغلابة)[7] ، أصوات تختلط ، صفير ، نداء ، خبطات الصاج ، دقات الباعة ، توسلات الشحاذين ، همهمة وغمغمة وكأنها لغة ارواح تتشاكى ، وهمهمة ضمائر تتكاشف .

– حراتي يا فول
– حلي وع النبي صلى
– لوبيا يا فجل لوبيا
– السواك سنة عن رسول الله
– لقمة واحدة لله يا فاعلين الثواب ، جاعان .
– يالي تكسي الوليّة يا مسلم ، ربنا ما يفضح لك وليّة
– وروني اجعص فتوة
– جتك لهوة يا بعيد
– سيبوه في حاله ، دا غلبان[8] .

نداءات بعضها متحد وبعضها مستسلم ، بعضها من فتوة[9] وبعضها من (وليّة)[10] ، بعضها من شبعان وبعضها من جوعان ، ولكنها جميعها – بما فيها صوت بائع العرقسوس – تتوجه الى ضريح السيدة ، فتجد هناك التسامح والاتساع للكسل والتفهم للجميع ، بركة ام هاشم ام الغلابة ولكن خذ بالك – صدقني – ليس هذا كل شيءْ ، لو صبرت على رزقك قليلا فستلمح جانبا آخر بغيره تكون الصورة ناقصة ، أو غير مكتملة الزوايا والابعاد كما يقول الدكاترة النقاد .

ان هذا التاجر الدمياطي حين ينتهي من لغة الزبون ، ويتعب من اللف والدوران وتأتي نوبة المساء . يقفل «الدكانه» على كل ما فيها ، ويقصد – قبل ان يذهب الى البيت – الى مسجد من تلك

---

(٧) الغلابة : المساكين ، المغلوبون على أمرهم .
(٨) هذه النداءات مقبسة من موضوعات متفرقة في (قنديل أم هاشم) .
(٩) فتوة ج فتى ، وفي العامية تعني : الشقيّ الذي يستخدم قوته البدنية في الخصام والحصول على المال .
(١٠) الوليّة : عاميّة مصرية ، أي المرأة .

المساجد ذات المآذن المرتفعة – ودمياط بلد المأذن – وفي صحنه المكشوف يتصل بمولاه ويتكاشف معه ، ويتكلم بلغة تختلف عن لغة الصباح ، لغة القلوب والضمائر ، حروفها نور ، وهمهمتها ضراعة ، ومعناها سر متفق عليه بين العبد وربه .

ان هذا السقاء أو الشحاذ في حي السيدة ، يدخل المسجد وينضم الى حلقة الذكر ، ويمسك بالاعمدة النحاسية التي تلمع فوق الضريح ، وتبدأ المكاشفة ، تتهدج اللغة أكثر ، هو يشحذ في تلك اللحظة من مولاه ، إن كان رده خلق كثير في رحبة الميدان فلن يرده مولاه في رحبة السيدة ، وتحت القنديل المعلق فوق المقام (هيهات للجدران أن تحجب (أضواءه) كما يقول يحيى حقي)[11] .

وان هذه المهات التي تملأ حي السيدة بعد القيلولة وفي ساعة العصاري ، تحوي سرها الخفي الذي لا يتصل به الا العارفون ، والعارفون ليسوا هم من يحملون الليسانس او البكاليوريوس ، أو غيرهما من الشهادات ذات الرنين والكلمات الافرنجية ، بل هم العارفون المتصلون ، عرفها عتريس خادم السيدة ، وغابت عن اسماعيل خريج المدارس وتربية أوروبا الذي جاء يحمل العلم من الخارج فرحان بنفسه ، وكأنه (جاب الديب من ديله)[12] فيضحك السر الخفي في نفسه ، ويصبر «على واردبره» حتى يهدأ ، ويرجع الى أصوله ، عند ذاك يبوح له ولكن بصورة تختلف عما باح به لعتريس ، وعتريس لم يسافر في طلب العلم فيكفي أن يطيب النفوس ، أما اسماعيل فقد طلب العلم في بلاد بعيدة وتعب ، فليطيب النفوس والاجسام معا . إن مقادير الابناء تختلف ، ولكنهم على أي حال هم أبناء ، ولن يحصلوا على السر الخفي إلا بعد أن يتصلوا بعرقها الدساس .

إن هذا الكبير الذي لا ينطق الا بقدر مرسوم قد يفيض أحيانا ، عوف الله ، عوف الله ، إن المجلس مجلس علم وأدب ، وليس مجلس أبناء وحفدة ، فيفيض حقيبته وينثر ما فيها على الحاضرين ، أية فلسفة وأية خبرة ، هو لا يتتبع نظريات ، ولا يُلخصّ ولا يشرح أقوالا ولكنه يفيض بأشياء أحس بها واقلقته وقلبها على وجوهها ، يحيى حقي لا يمل عن السؤال ولا يخجل من أن يتتبع كلام تلميذ صغير ، هو يستمع اكثر مما يتكلم ولكنه يدخر لوقت الحاجة ، ما ألذ الساعات حين يفيض ، عوف الله عوف الله ! فيصبح كالنيل بعد التحاريق وفي بلاد الصعيد «فلا يأتي الميعاد حتى تنتفض مصر تحت الرشفة ، تنقلب قبلة حارة تتفجر بها شهوات جنسية تتجمع طول السنة[13] ولكن ليس له مفاجآت النيل ، إن يحيى حقي لا يفيض الا بعد ان يتحسس قلب القارئ وإلا بعد أن يعقد صلة معه ، فاذا أطمأن الى هذا ، فخذ عندك ، انظر الى اهداءات كتبه كيف يسعى الى عقد الصلة وبث روح الألفة ، يقدم كتابه عطر الأحباب – حتى العنوان عنوان صديق حبيب – فيقول «أهل بيتي هذا لم

---

(١١) قنديل أم هاشم ص ١١ .

(١٢) مثل من أمثال العوام ، يقابله في العراق : جاب رأس السبع .

(١٣) دماء وطين ص ١٢٠ .

يسكنوه لأنني احببتهم واحدا واحدا ، جذبني الانسان فيهم قبل الفنان ، لم اتحدث عنهم حديث ناقد بل حديث صديق . . . إنني اتمسح باردانهم لأشم عطر الأحباب» ، ويذكر أن الدافع الأول لكتابه «دمعه فابتسامه» – عنوان يدل على المشاركة – هو عناق الكلمة وبحث قلب عمن ينصت لنجواه» .
انني اذكر – بنشوة لا تعادلها نشوة – اللحظات التي كنت أجلس فيها إليه ، حين كان رئيسا لتحرير مجلة «المجلة» ، كان «يفضفض»[١٤] عن نفسه ، يخلع الحذاء يأخذ راحته تماما ، يضع رجليه تحته فوق «الفوتيل» ، وكأنه يجلس على شلته شرقية ، يأخذ في الحديث ، ما أمتع هذه اللحظات يتحسس الكلمات كلمة كلمة ثم ينظر اليك ليرى وقع هذه الكلمات ، وكأنه يخشى لفرط حساسيته ان تكون إحداهما قد جاوزت الحد ، وبين كل وقفه وأخرى يحاورك بهذه اللازمة المحببة «إيه افندم[١٥] ايه افندم . . .» ولكنك ان استطعت السيطرة على نفسك فستلمحُ منه عينين واسعتين مندلقتين ، وتحتهما فم ينفرج عن ابتسامة وكأنك أمام ثلاث بطاريات تصدر شحنات قوية . مالي – سامحني المولى مرة اخرى – استحضر صورة نوع من القطط له موهبة خاصة يحملق ، وهو على الارض بصبر وبتركيز في فريسته وهي في سقف المنزل فتدوخ – كلمة داخ وباخ من الكلمات التي يكررهما يحيى حقي كثيرا – وتسقط من السقف .

يحيى حقي ليس شيئا سهلا مهما تخدعنا ابتسامته فلا يمكن حصره في صفة ، هو تاجر وليس بتاجر ، هو بائع ماء وطالب ماء ، يمد يده فاذا فتحتها وجدت فيها كنزا (ذكرت الصحف ان احد شحاذي السيدة كان يملك ثلاث عمارات) ، ليس هو من طينة الثائرين الذين لايعجبهم البخت المائل ، فيتحدون ويواجهون ، وليس هو من عجينه السذج «(أَلْي)[١٦] في قلبه على لسانه» هو عالم خفي كأعماق المحيط تتضارب فيه دوامات كثيرة ، وهنا سر الخصوبة في أدبه لا يمنح نفسه اول لقاء ، يحتاج الى معاودة وقرع للابواب حتى تفتح على دهاليزها . أدبه يقرأ على مستويات ، ويل للعابر العجلان انه لا يقبض على شيءٌ ، يوهم النفس أن حبه (يشخلل)[١٧] وهي في الحقيقة «شخللة فكه» ، لو تريث ولم يكن كالسمك حديث الولادة يفرح بالعوم والنط ، والقفز ، لباح له المحيط بما في الاعماق ، اذكر – «لسوء حظي – أول تعارف على أدبه حين كنت صغيرا أقبل كلمة النقاد وكأنها كلمة الله ، قرأت لأحدهم نقداً لقصة قنديل «ام هاشم» ، يراها – ويدينها من أجل ذلك – ضد العلم وضد التقدم الانساني ، كيف يصح – يقول الناقد – ونحن في القرن العشرين لشخصية مثل اسماعيل ان تنبذ العلم الذي حصلته في أوروبا ، ويداوي المرضى بزيت القنديل ، هذه رجعية واغراق في

(١٤) يُفضفض عن نفسه : عامية مصرية أصلها عربيّ : كأنّه يفضّ ختم نفسه فتنطلق شكواه وهمومه على لسانه .
(١٥) أفندم : تركيّة ، تقابلها في لهجة العراقيين سابقاً (أفندي) وقد زالت الآن .
(١٦) اللي : الذي او الذين او اللاتي . . عامي ، تجده في كل اللهجات العربية .
(١٧) يشخلل :

جهالات الشرق ، وكنت يوم ذاك لا اسمح لنفسي بمناقشة آراء النقاد ، أحترم الكلمة لمجرد أنها مطبوعة ، فظللت فترة طويلة أرفض الاقتراب من أدب يحيى حقي ، كيف اقترب منه وأنا – فيما يخيل لي – الشاب المتنور الذي امتلأ عقله بأسماء كتب كثيرة ، وجرى لسانه بأعلام افرنجية ، وقرأ في روايات الهلال لتولستوي وديكنز ، واسكندر ديماس واجاثا كريستي . الى أن التقيت به في القاهرة ، هل هذا هو يحيى حقي ، الذي كان يخيل لي أنه سمين الوجه دفين العينين ممتد الشفتين مغمض النظرات ، لا يحاورك الا ليردك عن ضلال ، كلا : انني الان امام ابتسامة واعية شفافة ونظرة تحنانه فاهمة ، امام شخص قد فهم سر الكون فارتاح . وعاودت قراءته بالله لكم يظلم النقد الكثيرين . أتبلغ الجهالة حدا ألا يفقه النقاد ما يقولون ، او عند حسن الظن لا يحترمون الكلمة التي قد تُلقَى فيروع صغير فتضلله أعواما . إن الرجل لا يرفض العلم ولا يدعو الى الشعوذة ولكن له مقصدا اخر لا تقصده الا العين الخبيرة ، التي تتغافل – لحكمَه – عن كل الظواهر لتقع مباشرة على اللب ، وكأننا ازاء اشعة اكس تخترق اللحم والدم والجلد ، لتعكس القلب على حقيقته وبكل ما فيه من أجسام غريبة ، لا تبدو للعين المجردة التي لا ترى الا للدماء تترقرق جميلة ، على صفحة الوجه ، ولكنها لا تهتدي الى مكمن الخطر .

* * *

وتعتبر أشعة اكس ليس استطرافا ، بل هو التعبير الذي تنطلق منه في محاولة لفهم يحيى حقي . وهو لم يفهم اصطلاح الأدب المصري كما فهمه معظم أبناء جيله ، يذكرون اسم محمد او خديجة ، وينثرون رقعا من حياة الريف ، أو عادات الأحياء الشعبية ، لايمتدون الى أكثر من ذلك ، وصف يحيى حقي قصصهم بأنها سريعة في النقاط الحادثة ، سريعة في تسجيلها على الورق ، في شكل قصة قصيرة تكتب في جلسه واحدة ، إنها لاتعرف الاجترار ثم التخزين ثم التعبير ، بل النضج على نار حامية ، لا عجب إن شاطت أحياناً كثيرة[18] ولكن يحيى حقي نفذ من وراء ذلك الى جوهر الشخصية المصرية ، قدرة عجيبة في تلك الفترة المبكرة لا تخدعه الظواهر قد يموت محمد أو تموت خديجة ولكن الشخصية المصرية التي تشكلت عبر التاريخ ، وكانت حصيلة ظروف جغرافية وثقافية لاتموت ، إنها كالروح الذي ينتقل من شخص الى شخص في المعتقدات الهندية ، ومن ثم فالقصة التي يشاء لها المولى أن تهتدي الى هذا الروح لاتموت بموت محمد وفاطمة ، واختفاء ماكان يشغلها من أرق ومشكلات ، بل تبقى ببقاء تلك الروح الذي تنتقل عبر الاجيال . لاأجد مثل قصة «قنديل ام هاشم» تعبيرا عن هذه الشخصية ، ان اسماعيل نشأ في حي السيدة وتلبسه روحها من حيث لايدري ، أنتقل اليه مع الهواء الذي كان يتشممه في الميدان ، ومع العطر الذي كان يفوح من المقام ،

(١٨) مقدمة سخرية الناي .

ومع الادعية والأوردة التي كانت تملأ أركان البيت «من يقول له إن كل مايسمعه ولايفطن له من الاصوات وكل ما تقع عليه عينه ولا يراه من الأشباح ، لها كلها مقدرة عجيبة على التسلل الى القلب ، والنفوذ اليه خفية والاستقرار فيه ، والرسوب في أعماقه فيصبح في كل يوم قوامه» . وحين ثار على قدره لم يفلح ، جاء من اوربا برأس محشو بالعلم ولكن بلا قلب ، تمرد على الروح المصري فلفظه ذلك الروح «دقة بدقة والبادي أظلم ، وحين أدرك في محنته أنه ضل الفهم واعتمد على العلم وحده جرى على يديه الخير والبركة استمسك من علمه بروحه وأساسه ، وترك المبالغة في الالات والوسائل ، اعتمد على الله ثم على علمه فبارك الله في علمه ويديه توافد عليه الناس ونسوا – وما أسرع ماينسى المصريون – تهجمه على المقام وكسره قنديل أم هاشم ، ظنوه «مربوحا» فشفاه الله ، يحيى حقي ابن بلد مصفى ونستأذنه في اقتراض هذا التعبير منه الذي ردده كثيرا . ووصف به محمود طاهر لاشين ومحمود طاهر حقي وصلاح جاهين ومحمد تيمور ، وكأنه «اتريه» يحتفظ بها لاحبابه وأهل بيته – وابن البلد ليس هو ذلك الظاهر المبسوط«اللي رافع العيار حبتين» يهرول في الشوارع ويطلق السباب ، يتزوج الحريم ويخلف الصبيان على قد حصا الأرض ، بل ذلك الشخص الذي وصفه يحيى حقي بأنه ساخر وحكيم ، تحسبه لطيبته غراً ولكنه حويط يلقط العمله الصحيحة الممسوحة من بين عملة زائفة ولو براقة[19] ولاينطلي عليه الكذب والنفاق ودموع التماسيح ، فيه مافي ابن البلد من ميل للقفشة[20] وحب التندر لايتحدث عن نفسه ، فلا يفخر بنفسه الا ابليس ، اذا فعل فانه يستغفر الله ويستعيذ به من الشيطان الرجيم ، انظر اليه يتحدث عن نفسه فكيف ولماذا «ياعيب الشوم» يتخلف السيد القادم من اوربا عن اللحاق بهذا الركب الراقي ؟ انه ليس اقل من افراده ثقافة بدليل انه ايضا قرأ مؤلفات لبيير لوتي وهاهو ذا يضع على رأسه قبعة بأمر مصطفى كمال خواجه بحق وحقيق[21] سخريته كفرفور تنصب على نفسه ، اذا سخر من غيره فيسرعه وفي الصفحة نفسها أو الصفحة التالية يسخر من السيد السند أيضا ، وكأنه يقول «مافيش حد احسن من حد» ، يذبح الذبيحة ويذكر اسم الله عليها . وإذا لم يذكر اسم الله فهي نجاسة لايقربها ، أمره عجيب فما بعد الذبح قسوة (يلبس قفاز حرير) ولكنه يضرب ضربا موجعا ، لا أرى نقدا أوجع من نقده لنجيب محفوظ . يصببه في المقتل ولكنه يبسمل ويحوقل ويستغفر الله مرات قبل جز السكين ، فيكون في بسلمته إيلام أشد ، تراه يقول (نجيب محفوظ الكاتب الكبير العبقري . ال – ل) ، فيكون رويدك لاتنخدع فهذه البسملة والطنطنة تمهيد للضربة القاتلة ، باب العذر أمامه مفتوح هو لا يقول الا الحق والحق لايغضب ، تنبه للفولة التي غابت عن الكثيرين ، بين ضجة التصفيق أو رفس ، الارجل ، لايقف في وصفه للامكنه ايضا عند

---

(١٩) مقدمة كتاب القاهرة ص ٨

(٢٠) القفشة : عامية مصرية ، لايعرفها العرب ، تعني الأمساك بالفاعل متلبساً بفعلته .

(٢١) دمعة فإبتسامة ص ٣٢

حد الظاهر يتسلل الى نواتها فيكشفها ، للامكنة سر كما للناس سر ، سرها هو الباقي ، سعيد من يتنبه له يعيش قرير العين ، لم يفهم عباس البوسطجي سر الصعيد فكان كالنبات الشيطاني الطافي فوق سطح الماء ، لم تمتد جذوره الى ماتحت التراب والغبار فيفتش عن السر في حقول القطن وسنابل القمح ثار وفقد اعصابه وجن ، ولكنه كان شاهدا على قوة المكان . قصة «البوسطجي» تراجيديا يلعب المكان فيها دور القدر ، الذي يحرك الخيوط ، والمكان هنا ليس وعاء فارغا ، بل هو محتوى صب في الوعاء على مر الأجيال ، ومن عناصر بعضها حار وبعضها هباب حجر وبعضها غبار ساخن ولكنها تفور وتتشكل بلون الاناء ، وهنا نستسيغ دور الصدفة في موت أم احمد ، لأنها هنا منطق القدر ولولا الصدفة لما كان معنى للقدر ، لا اجد كاتبا من جيل يحيى حقي قد صور الصعيد مثله في مجموعة «دماء وطين» ، لم يقف عند الأسمال البالية ولا العروق النافرة ولا القرى المتهدمة ، ولاعند البراز والصديد والعرق . بل نفد الى المحرك الاول ، ومن ثم نجد الشخصيات وكأنها ضحايا مسيرة نحو واجب تؤديه ، كعروس النيل تحتضنه نشوى بموتها ، يقول البوسطجي (الدنيا دي حاجة سخيفة بتهيء لي أنها طرشة تفضل مهما صرخت فيها ماشيه زي العادة مافيش حاجة تقدر توقفها» ، ويقول عليوي في (قصة في سجن) (ساعتها ماكنت داري لنفسي) ويقول المؤلف عن «جاسر» بطل قصة (ابو فودة) من اين له ان يعلم ان هذه المشية دمغة لاتزول ، وارث سجن طويل عاش فيه جاسر ، تربط رجليه الواحدة بالأخرى سلسلة قصيرة خمس عشرة سنة تتدفأ من حرارته ، هي عرق في جسمه يكاد يجرى فيها دمه . وهنا نجد عند يحيى حقي اللفتات الميتافزيقية التي ترفع القصة من مجرد احداث عادية ، الى علامة استفهام كبيرة تملأ الافق وتلح على الناس ، هو لايقدم — ولا يدعى ذلك — اجابة على هذه العلامة ولكن يكفي — واجره ، على الله — ان يشير اليها قائمة ، وكأنها محجر ابو فودة في لغطه وثرثرته يقول

ليلي ليلي ياوعدي

* * *

واحب أن أنبهك — وعذرا — الى ان كلمة اشعة اكس ، ليست هي التعبير الذي يغني وحده ، يكفي انه ينتسب الى العلم ويحيى حقي — كما عرفنا — لايرى الخلاص في العلم وحده وهو يقرن العلم بالايمان ، اسماعيل حين آمن بالعلم وحده وجاء من أوروبا ،«كسبع «البرومبه» [٢٣] —والقافية تحكم— خسر المعركة وحين عرف الطريق رضي فارتاح ، مثل النفس المطمئنة . ومن ثم فتعبير أشعة اكس يحتاج الى خطوط تكمله ، يحيى حقي لايرضي بالاشياء الارضية فقط ، هذا حظ القاصرين ، أما هو فله لحظات علوية يتصل فيها بخالقه وبالسر المقدس ، الذي يقبض عليه من خزائنه ، وخزائنه لا تنفذ ، له تجربة في التصوف شرحها — ولله الحمد بالتمام والكمال في كتابه دمعة فابتسامة ، وكل ماتستطيع ان

(٢٣) وحبه :

تنتزعه من هناك هو قوله وليس إلا في التصوف مثل هذا الحث العنيف –كأنه لسعة سوط – للحواس الخمس ، على أن تعمل باقصى طاقتها وللروح بأن تبلغ معه تمام يقظتها وللعقل بأن يتحرر من سجنه من البدن ومن أحكام الزمان والمكان ، لاينكر العلم ان فينا قوى جبارة مخبوءة وعلى مدى التاريخ الانساني لم تحاول يد مثل يد التصوف ان تكشف عنها وتفكها من عقالها .

رجله مغروزة في الأرض ، ورأسه يهوم في السماء ، ومن ثم فأسلوبه مليئ بالاشارات والومضات ، هو أسلوب من وصل فعرف فأراد أن يصف اللامحدود ، والمطلق بالمقيد ، والمجرد بالمجسد ، نجد عنده لحظات كشف ، فيها همهمة وغمغمة ولكنها ترجع الى النبع الاول ، وتغترف من الفيض الالهي ، تغني همهمتها عن الاف المجلدات لانها همهمة كلغة العرافة تنبئ بالأحداث قبل ان تقع . هو صوفي وقديس ذلك الذي يكتب «صح النوم» فمن خلال همهمته ومذكراته يتصل بالسر ، ويعرف مالا نعرف ، يريد ان ينبئ قومه ولكن هل يصغون . يتخذ لغة الصوفية لغة الرمز والاشارة ، ولكن القليلين هم الذين يحتملون الكشف الصوفي ، ماكل الناس تؤهلهم طباعهم لذلك . كم هم الذين افادوا من هذا الكتاب مثلاً ومن إيماءاته وهو يقارن بين قرية الأمس وقرية اليوم ، قرية الامس كانت مثل الدقيق الطازج تمد فيه اليد فتحس بجبلة غنية كريمة فيها الدفئ والندى معا ، وكأنها تصافح مخلوقا له براءة البكر ، هشا قد خلع دروعه وإن أوحي عريه في الوقت ذاته بعز ومجد تليد ، وللدقيق الطازج رائحة تجمع بين نفس سنابل القمح في الحقل تقوم بسر اللقاح ومخاض الطين ، و بين عطر الخبز الطازج الخارج لتوه من الفرن وهو من أدق العطور . أما قرية اليوم فقد اختلفت يقول احد افرادها دع المجلس القروي ياعم في حاله ، من أكون حتى يفرغ لي ؟ وما انا الا رقم في عمود اخر فيعرف صافي رصيده فأنا وأمثالي من المطروحين بدل الاستاذ حال القرية من والى ، جاء بما رآه نهوضا بقريته ، ولكن اي تغيير لايقوم على التواصل الانساني فهو عبث وضياع ، يحيى حقي توكل على الله وقال ماقال ، ولكن هل فهم الاستاذ همهمته ، لا أظن فهي همهمة تكاشف وتواصل ، والأستاذ يضيق بهذا النوع السرحان من الناس ، أمره بحسم قاطع بأن يعرف واجبه ، فينهي كتابه ، ويقول : هاقد فعلت . جملة صغيرة ولكن اية جملة هذه : إنها توحي لمن يدرك بالمقدر وراء الحجب ، ولكن هل فهم الاستاذ – الله يرحمه – تلك اللغة الرامزة المكثفة المليئة بالاشارات واللمع التي تضيئ فلا يلتقطها الا من وهبه الله قلبا صافيا ، انها كلغة سيدنا الخضر مليئة بالألغاز لايقدر على فك طلاسمها الا المتريثون ، ومن ثم يقول الخضر لصاحبه العجول «إنك لن تستطيع معي صبرا . وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا .» التصوف مرحلة سامية في التفلسف ، ويحيى حقي بدا فليسوفا وانتهى صوفيا وفيلسوفا ، إن بوادر الفلسفة تبدأ من قصصه الأولى التي كتبها في العشرينات فهو لا يترك موقفا دون ان يفلسفه وتستمر معه هذه النزعة في رحلته الطويلة ، لا يقنع بالعرض والأرض والفاني . رثاؤه لاحبابه احتجاج وأسى ، فكر وعاطفة ، فلسفة ورضاء،الأشياء عنده تنفلت من خصوصيتها لترتد

جميعها الى منطقة واحدة نفسه تضم الكون ويتضرع ويتنسك ، يتحدث عن مغامرات الشباب بالحب نفسه الذي يتحدث به عن عبادة الشيخ الفاني «تعالوا جميعا الى فيكم من آذاني ومن كذبني ومن غشني ، ولكن رغم هذا لايزال في قلبي مكان لقذارتكم وجهلكم وانحطاطكم ، فأنتم مني وأنا منكم انا ابن هذا الحي انا ابن هذا الميدان ، لقد جار عليكم الزمان وكلما جار واستبد كان اعزازي لكم اقوى واشد[٢٤] ومن هنا سر الحب والتسامح والتحنان الذي يفيض على قصصه ، انه تسامح ابن البلد اللي قاسها من اولها الى اخرها لاتستحق لوي البوز ، وتحنان من ادراك ان هناك قوة خفية ، لها حظ كبير في توجيه مصائرنا قدر محتوم يهبط على الخلائق في حواشيه حوادث تسمى مرة مصادفات ومرة موجبات ما هي الا نغمة من نغمات الكون في دورانه ليس للانسان فيها الا ما للثقب في صغير الناي حقا[٢٥] لاتستطيع ان تتبين فلسفة متكاملة لديه كالجذر العتيق تستمد منه الاوراق والفروع حياتها ، ما قاله عن صلاح جاهين من أنه لا يقدم في رباعياته مذهبا فلسفيا متكاملا يختص به ، بل غاية مطلبه ولذته أن يكشف لنا من معدن روحه من وراء ستارة شفافة ملونة كقوس قزح[٢٦] — يمكن أن تقوله عنه ، كيلا بكيل ولكنَ مَنْ مِنَ أدبائنا يصدر عن تلك النظرية الكاملة ، يكفي يحيى حقي أنه ينزع قصته من الأرض ويعطيها نوعا من السمو ، ان لم يكن صادرا عن فكرة كلية فهو نتيجة حدس وصفاء ، كالزناد يقدح شرارا متطايراه إن حُرِم الرؤيا الكلية فهو يصيب المحز ، كتلك الحكم التي كان يطلقها العربي القديم ، تعبر عن النقاء الصحراوي أكثر مما تكتظ بالعلم وتقليب المصطلحات ، يريد أن يدرك غرضه في اقصر طريق ، ويجود من فيض الكريم من غير لف ولا دوران ، وجاء اسلوبه عناقا تاما لأفكاره هو -كما قلت- لا يتيه في غمار التفصيلات ويصطاد جوهر الشيْ — شخصيته أو مكانه — في لمحة سريعة كالسهم لايثنيه عن هدفه ازيز الهواء ولا خشخشة أوراق الشجر ، لغته ايضا كطلقة مدفع من خبير يعرف المدى ، له رأي في اللغة بسطه في كتابه خطوات في النقد يكره الفضول والترادف ولايحب اللت ولا العجن تقرؤه . فلا تجد لفظا الا وله معنى يضيفه الى اخيه ، يدقق في اللفظة الواحدة ، وكأنه يزنها على كفه أو بتأملها قبل ان يغرزها في الكانفاه[٢٧] له قدرة على التمييز بين كلمة وأخرى ، قد تبدو الجوهرتان متشابهتين عند القروي الساذج ، بل ربما تجذبه أحداهما لشدة لمعانها ، ولكنها عند الجواهرجي الخبير يتباعدان بُعد السماء والأرض والغنى والفقر والأصالة والزيف (يحيى حقي مولع بذكر المتقابلات) فنجد ان هذه الجوهرة وان كانت مطفأة تصلح دون الاخرى وان لمعت ، لا اجد مثل قدرة يحيى حقي على التقاط اللفظ العامي ووضعه في مكانه

---

(٢٤) قنديل ام هاشم ص ٥٦

(٢٥) دماء وطين ص ١١٨

(٢٦) عطر الاحباب ص ٥٦

(٢٧) الكانفاه : ؟

الذي لايغني غيره عنه ، فينتقي من العامية تعبيرات دقيقة او حركية مثل لعب الفار في عبي[٢٨] ، بتهمني على لقمة ، يمشي على قشر بيض ، كل عفشة ونفشة ، ملقف هوا . . .» له صبر أيوب على وزن الجملة فلا يضعها الا بعد ان يراجعها ، وقد تطول المراجعة فتفقد الجملة صلة الجوار الذي تحرص عليه اللغة العربية ، من هنا لانجده يستخدم كثيراً حروف العطف ولا أدوات الوصل ، لانه ليس في حاجة الى عطف ووصل ، والجملة قد عاشت على كفه فأصبح لها كيانها المستقل ، بل ويكثر من الجملة الاعتراضية والأقواس والتعليقات ، حتى يأخذ كل ذي حق حقه . أشبه بصبر السجين الذي طلب منه الحاكم نكاية به أن يفرز السمسم من الحمص في كومة كبيرة وغير منظمة ، ظل طيلة ليلة ينقب فيها .

* * *

ولكن مهلا . . . لاتظن ان هذا التدقيق يحرمه الالهام ، ويجعل نظرته تحت رجليه كلا – والله في خلقه شئون – لم يحرمه ذلك (الجدة) والبكارة ، لا أجد عنده تشبيها ولا استعارة ولا تصويرا جافا ، أو لاكته الالسن يجذب لنا تصويرات لاندري من أين فهو رجل متصل بعالم المطلق ، تقرأ التشبيه عنده فينتشلك من مألوفك وأرضك ، انظر مثلا كيف يصور خروف العيد ساعة الذبح «يكفي أن ننظر الى بطنه انها هي التي تلهث قربة مفكوكة الرباط تلق رجة بعد رجة بماء متدفق أو يصف احد المقرئين يمشي كالتختروان[٢٩] شال الكشمير يتدلى على الكتف وفتل العمامة المقلوظة مشرعه قلوعها مترددبين أناقة الذكور وأناقة الاناث ، ثم يتربع ملكا على عرش ويترنح ويتمايل ما اشبهه بدجاجة تبيض في ولادة عسيرة» .

أمر هذا الرجل «مذبلج»[٣٠] لا أعرف من أين أجيئه ، دقة وتدقيق وتسجيل لأشياء صغيرة ووصف لأمكنة ومآذن وتكايا . ورثاء لأحباب يلتفت فيه الى مالا يعرفونه ، ربما ، عن انفسهم كأنه تاجر يعد ويحصى ، أو عين جاسوس تسجل ، او صقر يتربص .

ولكن في الوقت نفسه سمو وتحليق ولحظات صوفية واتصال بعالم آخر ، يمد يده في الفضاء ثم يفتحها أمامنا ، فاذا فوقها كلمة لاتغني عنها غيرها ، أو تعبير يختلف عن المألوف ، أو تصوير يحرك فينا عناصر السمو والتشوف الى هذا العالم الذي يراه ولانراه .

ألم أقل من قبل ان يحيى حقي شيئا سهلا يمكن حصره مهما تخدعنا ابتسامته وأنه تاجر وليس تاجراً ، بائع ماء وطالب ماء . .

---

(٢٨) لعب الفار في عبي : رابني الأمر . . أمثال عامية لها مايقابلها من الكلام الفصيح ، وليس ماذكره المؤلف صحيحاً .

(٢٩) التحت روان : المحفة ، كان يُحمل عليها الأكابر أيام زمان .

(٣٠) مذبلج : ؟

هل أقول هذا لأعذر نفسي من انني لم استطع ان أقدم معناه كما يهجس داخلي ، على الرغم من أنني حاولت – كالتلميذ الشاطر – تقليد أسلوبه ولوازمه في الكتابة حتى كنت حنبليا اكثر من ابن حنبل ، واين يقف المريد من العلم .

ليكن ، لقد فعلت ، مافعلت وأجري على الله .

«سماح يا أسيادي سماح»

المصادر

ام العواجز
حبات السبحة
حقيبة في يد مسافر
خطوات في النقد
خليها على الله
دماء وطين
دمعة فابتسامة
صح النوم
عطر الحباب
القاهرة (المقدمة – ترجمة عن ديزموند ستيوارت)
قنديل أم هاشم

سلامة موسى

وقصته مع ذبابة سقراط



اتخذ من حياته مشروعا .

كان كل همه أن يطور نفسه .

لم يكن همه جمع المال أو شغل المناصب .

لايقاس الانسان في نظره بمقدار ما ألف من كتب ، لأن الكتاب الأول الذي يجب أن يؤلفه ، وأن يعتني به هو «حياته» ومن هنا فهو لا يبحث عن أسلوب في الأدب ، أو يعاني من أجل أن تفضي له اللغة بأسرارها ، أو يشغل نفسه بان يكون له في اللغة طابعه المميز . إن همه الأول هو البحث عن أسلوب في الحياة ، فاذا استطاع أن يؤلف نفسه كما يريد ، فسيجد بعد ذلك أسلوبه في الأدب .

كان يبحث عند فولتير وجيته وويلز وشو عن طريقتهم في الحياة . هؤلاء علموه – أو هكذا أراد – كيف يعيش الانسان حياته ، كيف لايحبس نفسه بين دفات الكتب فقط ، انطلقوا يعبون من الحياة ، ويتنقلون بين الأدب والموسيقى والعلم ، يكتبون وينشرون ، ويشتركون في الأحزاب ، ويدافعون عن الاراء ، وكل مايسمح به عمرهم القصير .

* * *

هو رجل تجارب ، وليس رجل كتب فحسب .

من أجل ذلك يحب الحياة الأمريكية المبنية على المغامرة والتجربة ، ويعلق بنوع خاص بـ(جون ديوي) لأنه يؤمن بالتجربة في كل شيء (البراكماتزم) حتى في الاخلاق ، ويؤمن بالاحصاء . ويسير سلامه موسى في ذلك حتى نهاية الخط ولا يضيره أن يخضع ضوابط الامة وقيمها للتجربة ، وأن يتنقل من اطار الى اطار ، انها التجربة وليكن بعد ذلك مايكون «إن دعوته للتجربة دعوة ملحة لايقصرها على باب العلم او على الاشياء اليومية ، بل يمتد بها الى الدين وغيره ، مما يند بطبيعته عن التجربة المتغيرة .

من أجل حرصه على تكوين نفسه وصنع حياته ، فر من قرية صغيرة بالزقازيق ، ترزح تحت التخلف الاقتصادي والاجتماعي ، وضيق المنافذ وقلة الفرصة ، الى أوربا حيث غرق حتى أذنيه في بحرها ، قرأ وزار المتاحف والمراسم ، وخالط الكثير من الناس ، والتقى بقادة الفكر ودخل في تنظيمات اجتماعية ، ما ابعد الفرق بين قرية صغيرة في الزقازيق في اواخر القرن التاسع عشر ، وبين أوربا في أوائل القرن العشرين ، بَهَرَتْهُ الحضارة الأوربية فنسي نفسه فيها وظل طيلة عمره يتغنى بهذه الحضارة ويخلص لها ، انها كالحب الأول – وقد سافر في العشرين – يعيش في نفس الفتى ، ويظل يعيش على ذكراه ، حتى ان تبدى له المحبوب بعد ذلك في صورة منفرة .

وظل سلامه موسى طيلة حياته يقارن بقسوة ، بين أوربا كما يحبها ، وبين القرية الصغيرة التي هي عنده رمز للعادات والتقاليد الآسنة ، ولما يمل هذه المقارنه ، حتى لو تطورت القرية واصبحت مدينة متقدمة ، حتى ولو كان هناك من يرى في القرية جوانب خير لم يلتفت اليها سلامه موسى ، وقد غرق

في بحر الحضارة المتلاطم .

حقا . . ظل في كل كتاباته يطور نفسه ، ويجرب ويغامر ، ويدعو الى ذلك بطريقة حماسية لاتقبل المراجعة أو التردد .

ان العبرة الأولى في قصة حياته التي ينبغي أن يلتفت اليها الشباب ، هي الاصرار على محاولة تغيير نفسه دون ملل أو يأس أو توقف عند سن معينة . لقد ظل طيلة حياته (١٨٨٨-١٩٥٨) يجرب ويدعو ، وكان يقول وهو في السبعين أنا شاب في السبعين ، لم يكن العمر عنده يقاس بعدد السنين ، فكم من شاب في العشرين وهو شيخ ، وكم من شيخ في الستين وهو شاب ، فإن المقياس الحقيقي هو الاحساس والحركة .

هنا العبرة التي تتبقى من سلامه موسى ، ان كل ماكان يدعو اليه قد أصبح من البديهيات بل تجاوزناه . إن دعوته للاشتراكية ، والتصنيع ، والأسلوب العلمي ، قد أصبحت من الأمور التي لايختلف معه فيها أحد ، ان كل ذلك قد فقد حماسته . وبقي من سلامه موسى قصة حياته ، التي حاول ان يؤلفها باصرار واخلاص .

ان العصامي في نظره ، ليس هو الذي يجمع المال أو يقتني العمارات ، فان طريق ذلك سهل يكفي - كما يقول - ان تقتر على نفسك ، وان تشتري عربة نقل ، تستغلها فيكون لك رأس مال ، يساعدك على الاستيلاء على مجهود الآخرين .

ولكن العصامي هو الذي يصبر ويكافح من أجل هدفه ، ولو أدى ذلك الى فقره وتشريده بل والى سجنه .

وهي العبرة التي كان يبحث عنها في ترجمته لجوركي ودستوفيسكي وغيرهما . ان جوركي عاش أربعين سنة وهو يكافح مرض الدرن ولم يستسلم ، كان عصاميا ولكن ليس في جمع المال كما هو المعنى العرفي ، وانما في تأليف شخصيته وتربية انسانيته .

ودستوفيسكى ظل مريضا طيلة حياته وحكم عليه بالاعدام وانتظر الموت بل رآه ولم ييأس هكذا كان رأيه في عرضه للشخصيات ، ان يستخلص العبرة من قصة حياتهم ، لم يكن يهتم بعرض تاريخي تسلسلي للشخصية ، ولكنه كان يقف عند الخطوط الرئيسة التي تستقطب الدلالة ، وكان يلتفت الى الشبان ويعرض عليهم هذه الدلالة . ومن هنا كانت طريقته تذكي الحماسة وتدفع وتحاول ان تغير ، كان يلجأ الى المقارنة ولو كانت موجعة ويتسلل الى النفس فيحاول ان يفجرها كان يهمه التفجير بالدرجة الاولى ، تفجير لكل شيء للعادات والتقاليد واللغة والفكر ، اما مابعد التفجير فهذه قصة اخرى .

ولكن يظل السؤال قائما ؟

دعا الرجل باصرار وتشبث الى مشروع «تأليف حياة» واعتبر هذا كتابه الاول والاخير ، وسافر وجرب وكتب ، ولقي من أجل ذلك الكثير من العنت ، فتحمل وصبر وصابر حتى النهاية . فهل استطاع ان يحقق مشروعه ، هل نجح في تأليف كتابه الاول والاخير؟ مامقدار الربح أو الخسارة اذا نحن جئنا بعد وفاته بنحو أربع عشرة سنة وقومنا تلك الحياة ؟ هل نلجأ – والسلاح سلاحه – الى الاحصاء والتجارب . فنسائل القراء عن اثر سلامه موسى فيهم نحن نعرف النتيجة مقدما . وهي بكل تأكيد في غير صالحه . سيتهم محبوه القراء بأنهم رجعيون يكرهون التغيير ويركنون الى ماورثوه ، وغير ذلك من صفات كان يطلقها سلامه موسى ببذخ في وجه المجتمع ، بل ربما يفعلون مثله فيلجئون الى التحليلات النفسية المؤلمة وضرب الامثلة –كما فعل – بالعبيد ، الذين يكرهون محرريهم ، ويشعرون براحة مع قيود العبودية ، لانها تغنيهم عن تكاليف المسؤلية .

ولكن هناك أمثله اخرى – بعضها معاصر لسلامه موسى – قد خالفوا مجتمعهم ، ودعوا الى تغييره ودخلوا في معارك كثيرة ، وثار ضدهم المجتمع ورماهم بالكفر والزندقة وبالانحلال والتسيب . ولكن بعد ذلك عاد المجتمع فاعترف بفضلهم وقدر مجهوداتهم . إن محمد عبده وقاسم امين ولطفي السيد وطه حسين جابهوا مجتمعهم بأكثر مما جابهه سلامه موسى ، ودعوا دعوات جزئية تغير من عادات الشعب وثارت ضدهم الثائرات ، ولكن حين هدأت العاصفة التى معهم المجتمع والتقوا في الطريق معه .

فما بال سلامة موسى لايجد القبول من الكثرة الكثيرة ، وان تحمست له القلة القليلة هل نلجأ الى التحليل النفسي والتفتيش عن الدافع الداخلي عند هذا أو ذاك ، والذي يجعل دعوة ذلك تختلف عن دعوة ذاك ؟ هل نلجأ الى مايسمى «الحاسة السادسة عند الشعب» ، والتي هي اشبه «بميكانزمية» الجسم تطرد الغازات السامة وتمتص الغذاء الصالح ؟ هل نلجأ الى نظريات فرويد وآراء أدلر ويونج ؟ سنفعل بكل تأكيد لأن سلامه موسى يشجعنا على ذلك ، ويدعو الى التجسس على نفسيه الشخصية ، وقد فعل ذلك بذكاء نادر وحساسية مرهفة . وأخذ ينقب بمشرطه داخل نفسيات نيتشه تولستوي ورينان ، سنفعل على الرغم مما في هذا الطريق من مزالق فقدنتهم بالتعصب ونفاق المجموع ومسايرة الشعب ، سنفعل لأننا تعلمنا من قصة حياة سلامة موسى الصراحة التامة ، فقد كان جرئيا في قول مايعتقده ، لايجامل ولاينافق ليرضى عنه الكثيرون ، كانت طبيعته طبيعة ثائر ، يقول مايراه في غير لف ولا دوران ، وبأسلوب علمي يسلك أقصر الطرق ويهدف الى الغرض بدون تزويق ولا زخرفة .

* * *

هل نلجأ الى التحليل النفسي الذي أراد سلامه موسى ان يغرسه في بيئتنا ، وان يعلمه الكتاب والمفكرين ؟ لاضير في ان نستخدم السلاح نفسه : ولكن فلننتظر قليلا حتى نتابع قصة كفاحه من

أجل خلق ذاته ، ولنرجع الى السؤال الذي طرحناه من قبل ، فقد يكون فيه مايلقى الضوء على مانريده من تحليل ، بل ربما يغنينا عن آلام التحليل .

هل نجح سلامة موسى في تكوين حياته كما يهوى ؟

ماكل مايتمنى المرء يدركه . كثيراً ماكان يحوم سلامه موسى حول هذا المعنى ، وهو يتحدث عن مدى قدرته على تأليف حياته . هو يقيم من نفسه — كما يعترف مثالا حيا على نجاح نظرية فرويد ، في أننا كثيرا مانتصرف من خلال ماورثناه واكتسباه في مرحلة الطفولة ، مايشكل اللاوعي الداخلي الذي لانستطيع أن نبرأ منه تماما ، مهما كددنا واجتهدنا .

إن الكتاب الأول الذي اعتنى سلامه موسى بتأليفه ، كان — ككل كتبه — يصدر من وجهة نظر واحدة ، ويرى الكون من بعد واحد . كان الرجل — على الرغم من ظاهرة المتحرر والمتمدين — أشبه بمتدين أعتنق فكرة ، ظلت بؤرة آرائه ، يرددها ويدور حولها ، ويفسر بها كل شيْ ، لايرضى بها بديلا ، ولا لها نقاشا ، كل ماعداها باطل ، وكل المناقشين جهله متخلفون لايفهمون شيئا .

هل يبدو ذلك غريبا بالنسبة لرجل يدعو الى الأسلوب العلمي ، والتجربة ويحكم العقل ويدعو الى الأدب الانساني والمحبة العالمية ، والى تحرير المرأة ، والأخذ بأساليب الحضارة والتصنيع ، واكتساب التفكير الصناعي ، وطرح التفكير الغيبي ؟ .

لايبدو ذلك غريبا اذا فتشنا عن البؤرة الأساسية في وجدانه ، والتي تتفرع منها كل الفروع ، واذا مابحثنا — كما يفعل فرويد — في اللاوعي الذي شكل تصرفاتنا .

الرجل في حقيقته ليس علمي التفكير ، بل هو ديني النزعة .

ولست أعني انه يصدر عن دين سماوي ، يدافع ويفكر من خلال نصوصه ، فهو يريد ان يبدو عصري النزعة ، يفكر تفكيرا مستقلا عن الأديان السماوية .

ان عقليته ليست علمية كما يدّعى ، تقلب الأمور وتوازن وتختار ، وتعيش في شك وقلق ، ولاتثبت على افكار معينة . ولكنها عقلية رجل متدين يؤمن بفكرة ، فهو يدافع عنها بحماسة ، ويظل مخلصا لها متعبدا في محرابها ، ثم يهاجم ماعداها وبعبارات قاسية ، وكأنه لايقبل ان تكون هناك فكرة اخرى ، ولايتقبل اختلاط الألوان والتماس المتناقضات ، فاتجاهه هو اما . . . . وإما وليس قد . . . وقد أي : إما هذا وإما ذا ، دون افتراض بأن الحق قد يكون عند هذا وقد يكون عند ذاك . ولوكان ثمة افتراض من هذا النوع لخفف من غلواء أسلوبه الجامح اللاذع ، هو رجل يؤمن بالتقابلات لابالتكامل ، فالعلم في مقابل الأدب ، والحضارة الاوربية في مقابل الحضارة الاسيوية ، والتصنيع في مقابل الزراعة . .

استبدل سلامة موسى دينا بدين .

فاذا كان قد رفض الأديان الشرقية ، فهو قد آمن بأوربا ايمانا شرقيا ، يقوم على الاستسلام

والاذعان . إن أوربا هي دينه الذي لايرضى به بديلا ، ألقى بنفسه في تيارها ليولد من جديد على حد قوله . وجعل يعب من كل ماتصدره دون تساؤل أو اعتراض . حتى العيب يبدو امام عينه جميلا ، وحتى العقد والأزمات تظهر أمامه دوافع وحوافز ، خير الحياة وخير الاشكال وخير الازياء . وخير الاكل والشرب وخير العادات ، هو ماتفعله اوربا وخير الرجال هم الذين يدعون الى الحضارة الأوربية . إن الخديوي اسماعيل ومصطفى كمال اتاتورك هما نموذجان ينبغي في نظره الاقتداء بهما[1] . له كلام عن الحضارة الاوربية نشره في المجلة الجديدة كأنه قصائد غنائية ، أو صلوات حارة يلقيها متعبد داخل الهيكل ، يدعو الشباب الى الاغتراف منها والصدود عن كل ماعداها من الحضارات التي نشأت في آسيا وافريقيا ، كان اوربيا أكثر من الأوربي نفسه ، فهناك من الاوربين أنفسهم من لايرضى عن الحضارة الاوربية ، ويجعلها مسؤلة عن تيارات العبث واللامعقول والضياع والتشرد ، والهيمان في مستشفيات المجانين او في عالم المخدرات والمسكرات . ولكن سلامه موسى لايرى فيها عيبا بل انه يكاد يبرر استعمارها ، فهي ليست مسؤلة عن ذلك ، ولكن المسؤل هو الشعوب المتخلفة يقول : (حين أتأمل بعض الأمم التي تعيش استقلالها ، واستبداد تقاليدها ، أحس كأني ارغب في استعمار اجنبي يصفعها الصفعة المنبهة)[2]

* * *

وفي مقابل ذلك يهاجم الوضع المتخلف في بلادنا ، وبعبارات غاية في القسوة والتجريح ، فنحن هبل جرابيع متخلفون أراذل سطحيون ، وغير ذلك من صفات استعملها في كتاباته ، ولا يترك مناسبة الا ويقارن بين الحضارة الاوربية المتقدمة ووضعنا المتخلف ، ويحمل على من يخالفه ولو في التفصيلات ، بعبارات تستخدم مفردات البصق والاحتقار والتفاهة والطفولة .

هل يقال ان الرجل يدعو الى التغيير والمقارنة ؟ لا بأس فنحن لانتهمه بسوء النية . ولكن أي هدف هذا الذي نجلد فيه بالسياط ونلسع بالوخزات ؟ هل الرجل «سادي» يستمريء التعذيب ، فلا يتبقى لدينا شئ بعد رحلة العذاب نستمتع به ، وقد ارهقنا الوصول للهدف . هل تذكرون قصة الذبابة التي تسللت الى منخر الفيل ، فجعلت تلسعه وتحركه وتهز جسده الكبير حتى ناله التعب ونسي الهدف .

يقول سلامه موسى معنى قريبا من هذا صرت عضوا مقلقا للمجتمع المصري ، مثل ذبابة سقراط أنبه الغافلين ، واثير الراكدين ، واقيم الراكعين الخاضعين ، وهل الهدف شئ مجرد او انه يتجسد في زيد وعمرو من الناس ؟ من العجيب ان حب سلامه موسى لما يسميه «البشرية» ، اقوى من حبه لفلان من الناس ، فماذا يعني هذا الشئ المجرد الذي يسميه البشرية ؟ ألا يعني في نهاية الأمر حاصل

(١) في الحياة والادب ص ٥٥ ، ١٦٨

(٢) هؤلاء علموني ص ٢١٢ .

مجموعة من الناس ، أو أنها شيء يعلو فوق الافراد ، ولا بأس ان يقدموا قربانا في هيكلها الاسمى ، أهي شيء يقترب مما يسميه نيتشه «بالسوبرمان» ، إنسان المستقبل الذي يجب أن نضحي بالافراد من أجل الاسراع بإيجاده ، فإن بين البشر عصافير ضعفاء يستحقون الفناء ، كما أن منهم صقوراً قوية تستحق البقاء ، يكاد سلامه موسى في حرصه على الانسانية يميل الى آراء نيتشه ، الذي كان معجبا به أشد الاعجاب «وهو خام اخضر في سن العشرين» كما يقول .

• • •

وهنا نرجع الى ما قبل سؤالنا الاخير ، فنفهم سر الانفصال بينه وبين الشعب . وهنا نستعين بشيء من التحليل النفسي الذي علمنا اياه سلامه موسى ، فنفهم لماذا يقبل الشعب التوجيه من هذا دون ذاك ، هل في الشعوب شيء من نقاء الطفولة (مرحلة الطفولة تلعب دورا خطيرا في التحليل النفسي) ، يجعلها تتقبل هذا الشخص ، لأنها تحس فطريا أن دوافع الحب تكمن وراء هذا التوجيه ، وتلمس بحساسيتها أن هذا الشخص – على الرغم من ظاهره المتجهم – فانه يصدر عن باطن خصب يفيض بالخير والبركة .

ان الشعب باق والأفراد زائلون .

تلك حقيقة لا تصدق على شعب بقدر ما تصدق على الشعب المصري ، مر عليه الكثيرون من أبناء وغرباء فذهبوا ، ولم يبق منهم الا ما يريد هو ان يأخذ . ان الكثيرين من امثال لطفي السيد ومحمد عبده ومصطفى عبدالرزاق وقاسم امين وجورجي زيدان وفرح انطون ويعقوب صروف وشبلي شميل وطه حسين وسلامه موسى مروا وسيمر أمثالهم ، وذهبوا وذهب معهم الكثير مما هو غير صالح ، وبقي ما يفيد الجسم ويهضمه ، بدون جلبة وبدون ادعاء ، بل اعتماد قدري على الايام التي تصفي ، انه شعب يفتح صدره للجميع ويجازي المسيء – الله يسامحه – بطريقة مصرية ، هي التسامح والانصراف عن المشاغب (سيبوه في حاله بكره تتعدل) .

وسلامه موسى يصدر عن طبيعة ثائرة عنيفة . انه على الرغم من دعوته الملحة الى التسامح والعلمية ، فان تكوينه الداخلي تكوين عنيف ، هو مثلا يفضل جوركي على تولستوي ودستويفسكي ، لانه كما يقول (اجد فيه مزاجي ونزعتي واتجاهي في الثورة التي لا يرضى عنها تولستوي ودستويفسكي المسيحيان) ، ومن ثم كان أسلوبه هجوميا ، يحاول به ان يبدو علميا متحررا من العاطفة ، يخلو من تلك القطرات الندية ومن الواحات الظليلة التي تخفف من قر الصحراء وحر الهواء ، انه لا يلين «ولا يخر الماء» ، يجهز على الذبيحة دون بسم الاب والأم والروح القدس ، ينفر دائما مما يسميه الأسلوب الأدبي ، ويتهمه بالزخرفة والتزويق ، وهو لا يدري انه بذلك يعبر عن طبيعته التي تكره العاطفة وتكره اللين ، ومن ثم فهو لا يريد ان يكون كاتبا ادبيا ولا يسعى لذلك ، لانه يفضل العلم على الادب ، انه في نظري كاتب اجتماعي يعمد الى بعض المشكلات الاجتماعية

فيعرضها ، بأقصر طريق وبأسهل أسلوب ، ان نظرته الى اللغة نظرة عملية ، لا يريدها الا وعاء لنقل الافكار ، اما الوقوف عندها واستكناه سرها كاداة لخلق شيء جمالي ، كما يقف الرسام او الموسيقي عند اداتها ، فهو لا يعنيه .

قلنا ان الرجل يصدر عن طبيعة تكره العاطفة ، وقلنا من قبل إنه ديني النزعة فهل ثمة تناقض ؟ .

أبدا . . الا اذا كان هناك تناقض في موقف أم تتعصب لصغيرها ، وتجد جمالا في كل ما يصدر عنه ، في شقاوته وفي رفسه بالأرجل وفي صياحه ، بل ربما في ضربه للاطفال الاخرين وانتزاع ما في أيديهم ، ولكن هذه الام تقف موقف الجمود – بل ربما العداء – من أطفال الاخرين . وهل ثمة تناقض في موقف معتنق لفكرة ، يتعبد بها آناء الليل وأطراف النهار يؤمن بها إيمان العجائز ، حتى إذا خاض في شئون الاخرين – بعيدا عن فكرته – بدا جافا صلبا ، ليس ثمة تناقض . ولكنها طبيعة بعض النفوس التي ترى الدنيا من زاوية واحدة ، وتأبى ان تتعامل مع الانسان ككل متكامل .

* * *

ثقافة سلامة موسى كلها ردود أفعال ، وصدى لأفكار أوربية اعتنقها ، فأراد أن يعتنقها الاخرون والرجل صريح في ذلك غاية الصراحة ، يحدد منابع ثقافته فيقول : عندما أرجع بذاكرتي الى البذور والجذور التي نشأت ونبتت فيها ثقافتي الحاضرة ، أجد أنها تكاد جميعها تعود الى الفترة الواقعة من ١٩٠٧ و ١٩١١ حين كنت في لندن . . . ومع اني الآن مشرف على الستين فاني اجد بالاستبطان الذهني . إن ما اعرفه أو اعتقده أو أدعو اليه من نظريات او مذاهب في سنة ١٩٤٦ ، إنما اخذت جراثيمه الاولى من تلك الفترة[1] .

منابع ثقافية أوربية ، لا تجد كاتبا عربيا ملك عليه نفسه ، الا اشارات لفرح انطون ويعقوب صروف وشبلي شميل وجورجي زيدان ومي ولطفي السيد ، وأمين المعلوف وعبدالرحمن البرقوقي وطه حسين ومحمد عزمي . بينما نجد حشدا هائلا من الاوربيين الذين علموه وكان لهم الاثر الكبير في تكوين وجدانه ورسم حياته ، ونحاول أن نصطفي ثلاثة منهم كان لهم أثر خاص في حياته :

١ – داروين : في نهاية حديثه عنه يقول «أعطاني القلب الذي أزن به أحيانا ، وأحيانا أهدم به التقاليد ، وجعل التطور مزاجا تفكيريا ونفسيا عندي ، بل جعله عقيدتي البشرية التي تتأبى عن الغيبيات ، وقد أصبحت أقيس الأمم بمقدار تطورها ، وأقيس آمالي الاجتماعية بمقدار ما أجد من قدرة على التطور ، ذلك أن التطور أساسه منطق علمي ، ولكنه قد استحال عندي الى عقيدة قلبية ، وإذن أن اعتبر داروين المعلم الأول الذي علمني»[2] .

وقد تملكته هذه العقيدة القلبية طيلة حياته ولم يقبل نقاشا حولها ، وعد الخروج عنها نوعا

(١) تربية سلامة موسى ص ١٠١ .

(٢) هؤلاء علموني ص ٤٩ .

من الكفر «ومن يعارض التطور ويدعو الى الجمود يكفر ، لأنه يعارض الدين» واستقطبت كل افكاره ، لا تمر صفحة الا وترد فيها كلمة التطور ، حتى في عرضه للشخصيات كان يعرضها عرضا تطوريا ، لقد استحالت هذه النظرية عنده الى قالب ديني «وليس التطور كله منطقا تستطيع ان تقيم عليه البرهان القاطع لأن فيه كثيرا من التسليم ، ومن هنا كانت المشابهة بينه وبين العقائد الدينية ، وليس من الضروري كي يكون لنا دين أو ضمير ديني أن تؤمن بالغيبيات ، لأن المعارف العلمية في أيامنا تكسبنا نزعات دينية» .

وقد استهواه في هذه النظرية جانبها المبني على التنازع وبقاء الأصلح ، مما كان له أثر كبير في تفكيره وأخلاقه ، جعله يحبس منابع السخاء في نفسه حتى يبدو بمظهر المتطور المتمدين ، يقول في «صراحة تامة» وكان لهذه العقيدة مركبات نفسية عندي ، تتلوها مركبات اجتماعية ، ذلك ان تنازع البقاء في الطبيعة يجب ان يكون له صداه في مجتمعنا ، كأن تقتل العاجز العليل او نتركه يموت دون أن نعمل على شفائه ، فهؤلاء العاجزون عن التفوق يستحقون تخلفهم ، وليس من الواجب علينا أن نساعدهم على أن يرتقوا ، لانهم أنما ولدوا وارثين لهذا العجز الذي لن يصلحه الوسط ، ثم لماذا يبقى هؤلاء الزنوج أحياء مادامت هنا شعوب أرقى منهم» .

واذا كانت نظرية التطور صادقة في خطوطها العامة ، فقد دارت حولها مناقشات في أوربا من ايام داروين ، وبنوع خاص حول فكرة التنازع وبقاء الاصلح ، «التي حلت محلها فكرة التعاون وبقاء المجموع ، وثبت بالتجربة أخطاء داروين في كثير من التفصيلات ، فقد كان متأثراً بالجو الذي ساد أوربا في تلك الفترة فترة المد «البرجوازي» العنيف ، الذي كان يبحث عن الافكار التي تسوغ استغلاله واستعماره للشعوب الاخرى .

بل لنا أن نتساءل الان عن مصير التطور والسوبرمان ، إزاء الرعب النووي الذي يمكن في غمضة عين أن يعود بالبشرية الى عصورها الاولى .

— فرويد : ولعل ما جذبه اليه هو فكرة الصراع والكبت في التحليل النفسي ، وذلك التشابه بينه وبين داروين الذي يلاحظه سلامه موسى «وبين الفكرتين شبه كبير ، ذلك أن نظرية داروين قد اثبتت لنا ان الجسم البشري هو ثمرة التطور ، وانه لذلك يخفي كثيرا من الاعضاء البشرية القديمة ، التي ورثناها من الازمنة الحيوانية التي نشأنا فيها ، وكذلك الشأن في نظرية فرويد ، فإنه أثبت أن النفس البشرية قد ورثت وظائف وحشية قديمة ، واننا نألم ونبتئس ، لأننا في صراع لا ينقطع ، بين هذه الوظائف الطبيعية القديمة وبين قيود الحضارة التي تمنعنا من ممارستها» . كما يقول .

ونظرية التحليل عند فرويد ذات طابع سوداوي ، فإن العقد هي أساس الكثير من تصرفاتنا . فالفن لا يصدر عن شخص سوي ، بل عن شخص عاجز عن التكيف وتحقيق

الذات ، والثورة هي في جذورها ثورة ضد سلطة الاب ، وترشد الى عقدة أو ديب ، وقد تعرض سلامه موسى لكثير من تطبيقات هذه النظرية في حديث مثير وجذاب ، وخاصة للنشئ والمراهقين وفي المجتمعات المحافظة ، لتركيزه على دور الغريزية الجنسية واثر الكبت والحرمان في سلوك الفرد .

وقد افاد منها كثيرا في تحليل شخصياته ، وكان ينقب بنوع خاص عن مخلفات الطفولة الكاملة في اللاوعي ، والتي هي وراء سلوكنا فهنا عودة مرة اخرى الى نظرية التطور التي تربط الانسان بأخيه الحيوان ، ولكنه كان يركز على الجانب الحيواني اكثر من تركيزة على المكتسبات البشرية والضوابط الارادية ، كان يتسلل الى النفس – حين يتحدث عن انسان – فيعريها ويبحث عن الدافع الكامن ، هو لا يقف عن حد الوصف والمظهر الخارجي ، بل يحاول أن يبحث عن المبرر الغيبي او الكامن ، وعن الجوانب المستترة التي لا تخضع للتجربة العلمية ، على الرغم من دعوته الى التجربة والاحصاء .

- شو : رافق سلامه موسى برناردشو ، وحاول ان يحتذيه في تكوين نفسه وتربية ذاته ، فشو أيضا لم يحظ بتعليم جامعي ، ولكن كان كل همه ان يؤلف حياته بطريقة ارتقائية . . ويتحدث سلامه موسى عنه حديث المتوحد في شُخصيته ، ويصف أول لقاء بينهما في لندن . «أحسست كأني ازاء أجمل رجل في العالم ، فقد كان مديد القامة أحمر شعر اللحية والرأس ، وكانت في نغمات صوته بحّه خفيفة محببة . . ولم أترك له كلمة بعد ذلك لم أقرأها الى يوم وفاته» . وتعبيرات مثل : أجمل رجل ، مديد القامة ، في صوته بحّه محببة ، قد تهمنا لو اردنا الاستظراف بطريقة سلامه موسى في التحليل النفسي ، فربما تكشف عن نوع الارتباط الذي نما في نفسية سلامه موسى ازاء هذا الرجل ، وخاصة أن حديثه عنه حديث غنائي عذب «لقيته حين كانت لحيته صهباء . . . واني لأحس احساس اولئك الذين تغيظهم ممن عاصروا افلاطون أو أرسطوطاليس ، واستمتعوا بحديثهما» فتلك العبارات تنبئ عن نوع العلاقة بينهما وأنها اشبه بتلك العلاقة التي تتحدث عنها كتب الفلسفة ، والتي كانت تقوم بين المعلم والمريد ، يمتزج فيها تلقي العلم بنوع من الحب ، ويتحدث سلامه عما اكتسبه من معاشرة شو ، فهو قد أحاله من رجل شرقي جاف الى اوربي متمدين ، وهو الذي حبب اليه الاشتراكية وجعلها ديانته العملية ، وهو الذي حمله على ان يستمسك بالتطور ويجعله مذهبه في حياته وفكره .

وكان أهم ما لفته في شو هو ايمانه بالتطور ، فقد كان يدعو الى انشاء وزارة للتطور ، تعمل على ترقية السلالات البشرية ، وقد لخص سلامه موسى مسرحيته الانسان والسوبرمان ، وذكر انها امتداد لكتاب أصل الانواع .

* * *

وهكذا نجد ان تلك الخطوط الثلاثة الرئيسية في ثقافة سلامه ، ترتد في نهاية الامر الى فكرة التطور ، التي ملكت عليه نفسه ، ونظر الى الدنيا من خلالها ، ولم يتطور عنها الى شيءٍ آخر ، وهذا يدل على منهج سلامه موسى في التفكير ، فهو منهج يثبت على الشيءِ ثبات الناسك ، ولا يتحول عنه ولو تحولت الدنيا من حوله ، يقول «كان اول ما الفت كتابا باسم مقدمة السوبرمان ١٩٠٩ وانا في لندن ، أعاني اختمارات ذهنية كثيرة ، انفجرت بعضها في هذا الكتاب ، والآن بعد خمسين سنة اجدني لم اتغير عما قلت في هذا الكتاب» .

رأي سلامه موسى أوروبا فعشقها دون غيرها

وتعلق من أوروبا بنظرية التطور دون غيرها

ومادمنا بصدد الحديث عن سلامه موسى ، فأن تكرار «دون غيرها» أمر غير مثير ، فقد كان لا يعرف الا المتقابلات ، فهو «اما . . . اما» ، وليس «يجوز . . . ويجوز» .

المصادر

احاديث للشباب

الأدب للشعب

الانسان قمة التطور

برنارد شو

البلاغة العصرية واللغة العربية

التثقيف الذاتي

حياتنا بعد الخمسين

دراسات سيكلوجية

الصحافة حرفة ورسالة

في الحياة والأدب

مجلة الكاتب (عدد خاص - اغسطس سنة ١٩٦٢)

محاولات

هؤلاء علموني

المازنـي

وفرافيرو المدهش

فرافيرو هذا – ان كنتم لا تعرفونه – كتكوت ذو ذيل صغير ومنتفش ، وفم معووج ببسمة كبيرة ، ويلبس قميصا أبيض وبنطلونا أحمر ، يحكي للصغار في كتبهم المحببه والملونة مغامراته وقصصه ، التي ياخذ بعضها بذيل بعض – ويمكن بذيل فرافيرو أيضا – وينتقل من حكاية عجيبه الى مغامرة غريبة ، حتى يترك الاطفال مبهورين ، يرفسون الأرض بارجلهم ضحكا واستغرابا .

وما إن أقرأ للمازني وهو يقص على القارئ اخباره ، وذكريات حداثته وطفولته ، والاعاجيب التي حدثت له ، حتى يُطلّ عليّ من بين صفحات الورق رأسه ، اعني رأس فرافيرو بضحكته الواسعة وحملاقه – وهي كلمة كثيرا ما يستخدمها المازني – الذي يكاد بسيل على وجهه ، ونظرته التي تختلط فيها السذاجة بالشقاوة ، والرضا بالخوف من المطبات ، التي يلاقيها في مغامراته .

وفي قصة عود على بدء ، يعود المازني في المنام طفلا صغيرا في جسده ، ولكنه لا يزال يحمل نوازع الكبار وغرائزهم ، ويدهشنا المازني بالمفارقات التي تحدث ، فهم – اوهن وهذا هو المهم – يعاملونه كطفل صغير ، ويجرون معه على طبيعتهم ، ولكنه هو لا يجري معهم على هذه الطبيعة ، خذ بالك ، فهذا المكار يحمل ميول الكبار ، ويتحين الفرص لكي يرضي هذه الميول ، بين دهشة الحاضرين وغمز الحاضرات ، ثم يستيقظ من حلمه فيعود كما كان المازني الكبير ، يضطرب في الحياة ويسعى للرزق ، ولكنه يحمل في طياته نفس طفل كبير .

وأمثال هذا يتكرر في كتابات المازني ، مرة يعود تلميذا بالمدرسة ، ويتآمر مع اصدقائه على مدرسيه ، وثانية يتحدث مع الفتاة عن ذكريات الطفولة حين كان يضع لها الدودة في قفاها ، فتجري منه ثم تصب الماء على أم رأسه – لا أمه هو – وثالثة يذكر شقاوته وهو يطلع الاشجار ، ويأتي بالقطة الهاربة من حبيبته ، حتى ينال منها – اعني من حبيبته لا قطته – قبلة ، وينال منها – اعني من قطته لا حبيبته – ان تستكين في حضنه لحظات تتمتم وتلحس ذقنه ، ورابعة يذكر انه أغرى الكلب بابيه ، فعلا – اي علا الكلب اباه والمعنى واضح ولكن لا بد من التوضيح منعا للبس – وانتزع سترته وجعله يهرول الى البيت . وخامسة يضع النمل لابيه في طيات ثيابه ، ويجعله يقوم ويقعد ويخلع (هدومه) ، ويعود (بلبوصا) كما ولدته امه ، والطفل – اعني المازني – يضحك ، ولو وسعه (لدبدب) على الأرض برجليه من فرط السرور ، كما يقول المازني الكاتب .

* * *

ولو رحنا نستعرض أعاجيب المازني – او فرافيرو المدهش – لملأنا صفحات ، فلنكتف – على طريقة المازني في الحكي – بذكر بعض النوادر ، التي تفصح عن نفسية الطفل المستور في ثياب المازني ، والتي لها دلالة واضحة في الكشف عن دخيلته ، وتفسر فلسفته – اعني شقاوته – وتوضح اسلوبه الحركي ، وفكاهاته .

لا اجد مثل المازني مُصوِّراً للفزع والرعب ، ان الخوف يحيط به ، ويملأ عليه المكان من كل جانب ، انه يتحول الى طفل صغير يريد ان يحتمي بصدر أمه أو ساعد ابيه .

مرة وهو صبي في الثالثة عشرة كان يمر في الصحراء فابصر اشباحا على ضوء نار ، واذا هم نحو عشرة رجال ، منهم الضخم الهائل ، والطويل الهزيل ، والقصير البدين ، وكان أحدهم يغني والباقون يصخبون حوله ، ثم برز من بينهم رجل ضخم ، كأنه فيل – والتشبيه من عند المازني – وصاح بأعلى صوته «دعوه لي فانه طعامي الا تروني ؟ انظروا الي وراعوني ، اني أنا الذي يسمونه الموت والخراب العاجل ، أمي العاصفة وابي الزلزال ، وأختي الكوليرا ، انظروا الي وراعوني ، اني افطر بقافلة وبرميل من البلح ، واذا مرضت كان حسبي ملء سلة من الافاعي ، أفتت الصخر بنظرة واحرس الرعد بصيحة» . . ثم وثب اخر وانطلق يضرب في الهواء بنبوته وينادي «احنوا ظهوركم لركوبي ولاتنظروا الي بعيونكم فتذهلوا ، اني أحك جلد راسي بالبرق ، وانيم نفسي بالرعد ، وأروح على وجهي بالعواصف ، واذا ظمئت مصصت السحاب اني أحجب الشمس بكفي ، وأقد من القمر قطعة فينتهي الشهر ، وارتج فتندك الجبال ، احنوا الظهور لابي الخوارق» وجعلا يتواثبان ويضربان الهواء بنبوتيهما ويتسابان بأوجع الكلام .

الى ان ظهر لهما رجل قميْ الجسم – هل هو صورة من المازني – وصاح بهما قفا لعنة الله عليكما من جبانين والا اطعمتكما هذه العصا ، ثم جذب كلاهما بذراع ، واطعمهما التراب ، واوسعهما ركلا برجليه ، وأشبعهما تمريغا وضربا ، حتى انقلب هذان الفيلان الضخمان الى كلبين ذليلين عند قدميه .

يحدث كل هذا أمام المازني ، وهو مختبئ خلف صخرة ، يملؤه الرعب والفزع ، الى ان تنبه اليه احدهم فصاح به ، وتواثب الباقون واحاطوا به ، وجعلوا يتناوشونه ويهددونه ، غير ان الرجل القميْ تصدى لهم جميعا وقال ، «ليس الا طفلا ؟ ارفعوا عنه ايديكم ويمينا لادفنن من يلمسه» . ثم ترفق به وجعل يحادثه ويؤانسه ، ورافقه الى اول الطريق ، وتركه يعدو نحو البيت .

ومرة ثانية وهو في بواكير حياته ، كان يحب فتاة جميلة ، لا يستطيع اليها وصولا فقرأ في كتب السحر عن فوائد وأدعية مجرّبة ، تجعل الشخص يتخفى عن أعين الناس ، وتنزل المحبة في قلب من يريد ، فعزم على تنفيذ ذلك ، واشترى البخور الجاوي واللبان الذكر ، وذهب الى كهف بالجبل وجعل يتلو ويتلو ، ولعب به الخيال ، فتصورها قد أتت اليه حافية عارية الرأس في ثياب النوم ، دامية القدمين من وخز الحصى والرمال ، وتقول له رأيتك في نومي ناظرا اليّ محدقا فيّ ، فجذبتني عيناك ولم ازل اسير على ضوئهما ، حتى جئت اليك . فتجثو على ركبتها ، وتتوسل اليه أن يدعها ولو تحت قدميه ولم يعجبه هذا الخيال ، فتصور الصحراء وقد تحولت الى جنة فيحاء ، وتصور نفسه يطوف بها باحثا عن فتاته ، الى ان رأى ثوبها من بعيد فتبعها ولكن حاجزا من النبات الكثيف الشائك ، اعترض طريقه واحاطت به الاشواك وسجنته ، فيحاول الخلاص فيزداد تورطا وتخزه

شوكة في ذقنه ، وتجعل الدم يسيل ، فترق له الفتاة وتقبل عليه ، وتنحي الشوك بيديها عن وجهه وتدنو منه وتصبح عيناها في عينيه ، وانفها قبالة انفه وفها أمام فه ، ثم يغيبان في قبله لذيذة ، ولكن الحمار خارج الكهف ينهق مذعورا ويفيق من خيالاته ويبدأ في تلاوة الادعية والاوردة من جديد ، حتى ياخذه النوم ولا يستيقظ الا في الصباح ، وقد اكتشف أن اللصوص سرقوا حماره .

ان المازني كحامل صندوق الدنيا – وهو اسم كتاب له – يريد أن يجذب اليه أطفال الحي ، ويضع على عيونهم ستارة تحجب عنهم النهار وتحجبهم من اعين المتطفلين «اتفرج يا سلام الفرجة بقرش» ثم يعرض عليهم صورة السفيرة عزيزة ، او صورة ابو زيد الهلالي يمسك السيف ، ويطيح به رأس عدوه ، وصورة حصان وجهه كوجه امرأة ، وعلى ظهره جناحان ، وهكذا حتى ينبهر الاطفال ويجودوا على عمو مازني بما تجمع في ايديهم من (فكة)[1] ، يقول في مقدمة هذا الكتاب «ما زلت أمت الى طفولتي بسبب قوي ، وما انفكت اخراي معقودة بأولاي ، كنت أجلس الى الصندوق ، وانظر ما فيه فصرت احمله على ظهري ، وأجوب به الدنيا اجمع مناظرها وصور العيش فيها ، عسى ان يستوقفني نفر من اطفال الحي الكبار ، فأحط الدكة واضع الصندوق على قوائمه ، وأدعوهم ان ينظروا ويعجبوا ويتسلوا ساعة بملاليم قليلة ، يجودون بها على هذا الاشعث الأغبر ، الذي شبر فيافي الزمان ، وما له سوى آماله وهي لوافح ونجم سوى ذكرى نورها خافت» .

• • •

ولكن ما بال عمو مازني ، حين يخلو الى نفسه ، ويضع صندوقه جانبا ، يشعر بشيء من المرارة ، انه يضحكنا ويسلينا بمغامراته وحكاياته ، وصوره الملونة التي يلتقطها «ع الماشي» ، ويعرضها في الطريق ، ولكن في داخله جروح وندوب . بل ما له يبكي ، ما لهذه الدمعة تترقرق في عينيه وتسيل – اعني الدمعة لاعينه – على خده ، انه ينشج ، وان جسده يرتج ، يخيل لي – وبعض الظن اثم – ان حوارا يدور بينه وبين طفلة : –

– عمو مازني ، عمو مازني ، مالك .

فيمسح دمعته ويربت على خد الطفلة .

– تذكرت بنتي الصغيرة ، وهي حلوة مثلك ، كانت تلعب وتتفرج على الصندوق .

– انا عوزة أشوفها والعب معاها .

– هي بتلعب مع أصحابها الملائكة ، وانا بالعب مع أصحابي الاطفال ، اتفقنا على كده ، تيجي نلعب سوا علشان نسبقهم ويتفرجوا علينا .

– يا الله يا عمو مازني ، انا عاوزه العب لعبة الجمل ، انا ح اركب فوق ظهرك .

ويرقد عمو مازني على الارض ، وتركبه الطفلة ويتحرك بها ، وهو يقلد برطمة الجمل ويضرب

(١) فكة : نقود معدنية – صَرْف .

قلته ، ويسير بها وهي من فوقه تضحك ، وهو من داخله يبكي . وتظن الطفلة التي فوقه ان بكاءة تقليد لصوت الجمل .

– انت ظريف يا عمو مازني ، تيجي هنا كل يوم وانا أجيب لك قرش .

– أبوه يا بنتي ، هو حد واخد منها حاجة ، كانت حياة بنتي الصغيرة تلعب معايا زيك ، وهي سابتني راحت لباباها الكبير ، سابتني للصندوق وللدنيا ولما فيها ، انا ح اعمل ايه لازم اعمل جمل – وناقة كمان – دي شغلتي وقسمتي ، على فكرة هي مش اسمها حياة ، لكنه احسن اسم لها مش كده ؟

المازني حامل الصندوق ، يحمل ايضا هموم الدنيا ، يبدو كالطفل شقيا – من الشقاوة – ولكنه في الحقيقة كثير الشقاء ، اصيب في الصغر بالنورا ستانيا ، ومات ابوه وهو صغير ، رزق اعصابا تالفة دائما تؤرقه ، قال له احد الاطباء يوما «ان جسمك عبارة عن شبكة معقدة من الاعصاب ، وهي اعصاب حساسة مرهفة جدا ، وهذه الاعصاب في اطار من الجلد تحمله عظام ، وقد وضع هنا قلب وهنا معدة وهنا كلية الى اخر ذلك . وكل هذا سليم لا عيب فيه ولا مرض ، وانما البلاء اعصابك هذه فاعرف ذلك ، ورد كل ما تحس به وتقلق من جرائه الى هذا[1]» . وقست عليه المقادير ، فهو قمئ ضئيل به عرج خفيف ، تراه الحسناء فتتجاوزه الى غيره ، ولكنه فنان يملك نفسا مرهفة وحسا بالجمال ، ويتمنى ان يرتشفه في جرعة واحدة ، وان تتحول نساء الكون الى أمرأة واحدة يعتصرها ويأكلها بعينيه – وهو تعبير كثيرا ما يكرره – لا تهمه المرأة بعينها ، بقدر ما يهمه جنس النساء .

ولكن كيف الوصول الى النساء ودونهن خرط القتاد .

اصبح عمو مازني واسع الحيلة ، يجيد النكته والمحاورة ومحادثة النساء ، والتنقل بهن من طرفة الى اخرى ، بل احيانا يجيد (التقلّب) وعجين الفلاحة ، لكي ينتزع ضحكة من هذه الحسناء ، الواقفة وراء النافذة تتطلع اليه .

مرة يكون اسمه سعيد بن موفق

وثانية منحوس بن حيران

وثالثة شبعان بن متخوم

وهكذا يطلق على نفسه الاسماء – في كتابه ع الماشي – امام حسناء ، برزت له خلف شجرة تسأله عن اسمه ، فجعل يحاورها ويلاطفها ، ويطلق على نفسه الاسماء حسب الاحوال ، انه – كما يقول – له كل يوم اسم جديد ، فضحكت الشجرة – اعني المرأة – وحين مد يده ليقطف ثمارها استحلفته وكانت لبنانية :

– وحياة ذقنك

(١) ابراهيم الثاني ص ٦٣ .

– حلقت بغير شيء فقد حلقتها اليوم .
– يخرب عقلك .
– ليس فيه ركن واحد عامر
– اطلقني
– حتى اشكر الله
– ارفع يديك عني واشكره
– بل اشكره بقبلة .

* * *

المازني وقدة احساس ومجموعة اعصاب ملتهبة ، لا يصبر على تقليب الفكرة ، ولا يتحمل ان تعيش داخله كثيرا ، ما ان يحس بها حتى يجريها على لسانه ، لا يحب الفلسفة ولا وجع الدماغ ، والفكرة عنده تتحول الى احساس او كما يقول «وكثيرا ما تتحول الفكرة الى احساس فهذا يتسرب في ذلك ، وذاك يعود فيتسرب في هذا ولا نهاية لهذا التحول[1] لا يصبر على شيء وكأنه يخشى على أعصابه من طول الكتمان ، فهو يبوح بكل ما في داخله ، وماله يتكتم والقدر يتفجر اذا طال كتمانه انه ينتقل من فكرة الى فكرة ، وكأنه يطبطب على اعصابه ويرفه عنها ، والحب عنده يبلغ كماله بالانتقال من حبيبة الى اخرى ، فابراهيم الكاتب ينتقل من حب شوشو الى حب ليلى الى حب ماري ، ابراهيم الثاني يترك ضحية زوجته ، التي يجد عندها حنان الامومة ويتنقل من مغامرة الى مغامرة ، وكل مغامرة هي حسوة لا يريد ان يتعمقها ، ولا ان يتحمل مسئولية نتائجها» . سألته فتاة : هل عشقت ؟ فقال : نعم عدد شعر رأسي ، ولكني افيق واصحو في كل مرة بعد اربع وعشرين ساعة ليس الا»[2]
والعاطفة عنده هدوء لا ثورة ، إنه يحبذ حب الشيوخ على حب الشباب ، لانه – اي حب الشباب كالسيل جارف يغرق ويغري بالجنون انه كالطائر الصغير والجميل – عصفور الجنة مثلا – يريد ان يحسو من كل غدير ، وأن يرقص فوق كل بركة ، وان يزقزق مع كل هاتف ، انه يريد – اي المازني – ان يحب كل نساء الدنيا ، فهذه شقراء وهذه سمراء وهذه طويلة وهذه ممتلئة ، ما اصدق وصف العقاد له :

انت في مصر دائم التجديد ... بين حب عفا وحب جديد
بين ماض لم يذبل الحسن منه ... وطريف كالياقع الأملود
انت كالطير ربما شالت الطير ... عن الأيك وهو جم الورود

(1) ابراهيم الثاني ص ١٠٥ .
(2) ع المازني ص ٥ .

والكتابة عنده تفريج عن أزمة اعصابه ، انه لا يقف ليختار لفظا او يقلب فكرة ، يكتب بسرعة وكأن هناك من يلسعه بالسياط (اني لاكتب الآن وكاني اضرب بالسياط ، ولا اكاد أبدا حتى اراني أعدو واعدو طلبا للغاية ، ورغبة في الانتهاء) انه كالبغل المشدود الى الساقية يجلد ليدور ويستمر في الدوران ، ليته كان ذلك لهان الامر ، ولكنه يجلد فوق النفس وهذا أشق «الراحة . كيف السبيل اليها وانا كالبغل المشدود الى الساقية ، وكلما ونى أووقف صاح به صاحبه عا . . عا . . . وألهب ظهره بالسوط ليس لي سيد ولا اسمع احدا يصيح بي ليحثني ، ولكن السوط في يد الزمن ووقعه على روحي لا على الجلد ولو كان على الجلد لهان»[1] إنه يكتب وكأنه سمير يحادث بلا تكلف ، ويقص النوادر والحكايات ، ويتنقل من بيت شعر الى ذكرى من ذكريات الطفولة ، الى حدوته ، انه يحرص على ارضاء مستمعه فلا يوجع دماغه بفلسفة ولا تعنت ، ويأتيه بالفكرة عفو الخاطر ، لمحات خاطفه كالشرار المنبعث من وقع حوافر الجياد على الأرض الصلبه»[2] كما يقول .

* * *

ان الرجل موهوب بلا شك ، ليس هو فرافيرو المدهش الذي يقفز وينط فحسب ، ولكنه ايضا ذلك الأشعث الاغبر الذي شبر فيافي الزمن ، إن لمحات الفن تتوارى خلف اعاجيبه ، وان هناك شررا يتطاير ، فينبئ عن دقة حس الرجل ، ورهافة اعصابه وطاقته المختزنة ، انه حين يترك نفسه على سجيتها تتبدى فيه شاعرية ، واتقاد عاطفة وومضة ذكاء ، لا يوجد بين ادبائنا من يدانيه في الكتابة عن الاحباط وعبث الحياة ، وفي التنبه للرعب والفزع ، لقد أدرك اللعنة – لعنة الحياة – وهل هنا من يدركها مثل فرفور ، أو حامل صندوق الدنيا ، أو مهرج الملوك ، عرف اولها واخرها ، وشبرها طولا وعرضا ، فاصبح يعيش اللحظة ويستغرق حاضره . الماضي لا يهمه ، والمستقبل بيد الله ، حتى الخلود الذي يتعلق به بعض الادباء يتنبه الى انه عبث وفكرة رومانسيه ، ليطرد كل هذه الخزعبلات ، ولا يصلب نفسه من اجل اشياء ، تحجب التمتع بفرصة الحياة ، وتضيع عليه الاستغراق في الحاضر .

ان المازني مشروع كاتب وجودي لما يكتمل ما اكثر افكاره التي نحسها بعمق وفلسفة وادراك واع عند سارتر ، مثلا فكرة الخلوة ، فكرة الاحباط ، سوء النيه ، الآخر ، العبث ، فكرة الحاضر ، فكرة الوعي الذي يمنح الأشياء وجودها ، ان كل هذه الافكار يلمحها المازني بذكاء نفاذ ، ولكنه سريع وقصير ، يومض لينطفيء ، ولتضيع ومضته بين نوادره واعاجيبه .

ان ابراهيم الكاتب يحمل ظلال بطل وجودي ، انه يطفو فوق سطح الأشياء ، ويحس انه زائد على اللزوم ، فلا يريد أن يرتبط بشيء ، ان هناك مسافة بينه وبين الآخرين في كل الرواية ، بل ان

---

(١) مختارات ص ٥٦ .
(٢) ابراهيم الثاني ص ٤٥ .

هناك احساسا من الاشمئزاز – اشبه بغثيان روكانتان – يتنامى خلال الرواية ، وينتهي به الى رفض الواقع واللاانتماء والاحساس بالعبثية في كون غير معقول .

«قالت له الرمال : بودي لو تماسكت حباتي وثبتت ذراتي ، ولانت مواطئي لقدميك ، ولكني مثلك لاحيلة لي فيا قضي به . وقالت له السماء : ليتني استطيع أن أسدد خطاك وانير لك الطريق ، الذي تغوص فيه قدماك ، وأريك غايتك قبل مذهبك ، ولكن لنا ايناً لانملك خلافه ، وقانونا لانستطيع تأويله واعتسافه ، وما نحن وانت الا سواء ، وهل تراك تملك من امرك كثيرا او قليلا»[1] .

ان المازني – كما قلت – مشروع كاتب وجودي لما يكتمل ، وكان يعي في أول الامر – وكما في الديوان – ان الادب يجب أن يقترب من الفلسفة .

• • •

وكيف نستقصي الاسباب التي حالت بينه وبين الاكتمال ، وعاقته عن أن يسير في الطريق الذي بدأه برواية ابراهيم الكاتب ؟

فهل المسؤول هو جهازه العصبي الحساس – وكثيرا ما كان يشكو منه – الذي لايجعله .

لا اظن ، فهذا الجهاز لم يقف حائلا دون كتابات المازني الاولى ، واشعاره الرقيقة ، ونقده القائم على المعرفة والحساسية ؟

ولكن المسؤل الحقيقي هو الصحافة فقد اندفع لارضائها .

وقد أدرك المازني هذا – ولكنه لم يتوقف – فراح يشكو من المطبعة ، انها كجهنم لاتشبع ولاتمل قوله هات .

المأساة الفادحة ان الرجل كان يدرك سر المأساة ، كان يدرك سر حاله وماله وانه اصبح كمضحك الملوك في مسرحيات شكسبير ، فكان يسخر من نفسه سخرية مريرة ، وكان يسخر من ادبه ولايرى انه ينتج شيئا مفيدا ، فالاديب عاطل وطفيلي كما قالت له الالهة وان الكتب هي التي جعلته يهجر العمار الى الخراب ، وينتقل من المدينة الحية التي تعج بالناس وتزخر بالحياة الى الصحراء المنقطعة ورمالها الصفراء .

كان يخشى ان ينتهي به الحال الى الجنون ، وهي الصفة التي ألصقها المازني بخصومه ، اتهم بها شكري واتهم بها المنفلوطي ، وراح يتتبعها في أدبهما ويستشهد بكلام الاطباء والمحللين[2] .

وهو ان لم يجن ، فقد انتهى الى عدمية وتشاؤمية مفرطة ، فالكل باطل و (قبض الريح) ، وماتفعله أوهن من (خيوط العنكبوت) ، وستذروه الرياح (كحصاد الهشيم) .

ونحس في كتابات المازني ، أن هناك رغبات مكبوته لم يتح لها الاشباع . إن الرجل يتكتم

---

(١) – ابراهيم الكاتب ص ٣٨١ .

(٢) – راجع : الديوان ٩٣/٢ .

احاسيسه ويئد مشاعره ، رغم الحديث الكثير والمستطاب عن حياة الرقص ولقاء الفتيات . ان بعض الاسماك – كما يقولون – تطلق وراءها دخانا كثيفا لكي تضلل الفريسة .

نحس – على الرغم من الدخان الكثيف – ان الآما كثيرة لاقاها المازني الحساس ، ربما تكون من اسرته ومن أبيه بنوع خاص فحديثه عنه لايخلو من حرد والم . وربما تكون بسبب ضآلة جسمه الذي كان يغري به الاقران ، فيؤذونه ويطرحونه ارضا ويجعل الفتيات ينصرفن عنه ، ففي المواقف الوجدانية الخاصة يتذكر المازني العقاد ، وكلمة العقاد في أدب المازني ذات دلالات نفسية ، انها تطفو الى ذهنه في أدق المواقف ، يلتقي بفتاة فتبدو له طبيعية ، ولكن ما ان يعرض عليها ان يذهبا الى العقاد ، حتى تتنبه لنفسها وتغير من زينتها ، ويرى فتاة تعجبه فيستعير لوصفها ابياتا للعقاد[٣] .

ونحن نرجع أدق خصائصه الاسلوبية الى هذا الشعور بالاضطهاد ، انه يتلاعب بالضمائر بقدرة عجيبة ، ويحمل كلامه معنيين كأنه يريد ان يهرب في مبدا الامر من تحمل المسئولية ، فاذا اطمأن الى محاوره كشف عن المعنى ، وقال اعني أو اي ، واكثر مايكون هذا مع الفتيات انه لايكشف عن رغبته مباشرة الا بعد محاورة ومداورة ، ولف الكلام بالجمل المبهمة والضمائر غير المفسرة ، حتى اذا اطمأن الى محدثته ، وعرف انها لاتصده ولا تجرح كرامته ، ولاتنكأ جروحه فاض ورق واستهتر يراها وتعجبه ساقاها فلا يجرؤ على المغازلة تصريحا ، بل يدور حول غرضه ، فيتحدث عن جارة له دميمة الساقين ، وحين تسأله لعل الفتاة سعيدة لاتفطن الى عيبها يكر عليها بقوله : بأي حق تمنحك الطبيعة كل ماحبتك من المفاتن وتسلب تلك المسكينة كل هذا الذي ضنت به عليها ، وحين تتهلل أسارير وجهها لهذا ، يصل الى غرضه إن كل ما جادت به الطبيعة عليك ينقصها .

* * *

لو دار حوار في العالم الآخر بين ابراهيم الكاتب وغرافيرو المدهش ، فما أظنه يخرج عن الآتي :

ابراهيم الكاتب : اليك عني ، اغرب ، لااريد ان اراك ، لقد قتلتني .

غرافيرو المدهش : انا ياعمو مازني ، ايه جرى انت كنت تحبني وتبوسني قدام الناس وتطلب مني ان ارقص ، وأتمايل يمينا وشمالا . تخونك الملاليم التي كانت تنهال عليك من الصغار ، بسببي اشتريت سيارة وعشت حياة الاغنياء .

ابراهيم الكاتب : اوه لاتذكرني ، ان حديثك يبعث في نفسي الحسرة والمرارة . دعني ، اريد ان اخلو الى نفسي لحظات في العالم الاخر ، لقد حرمت هذه الخلوة في الدار الفانية ، افلا استطيع ان انعم بها الآن ، اذهب بعيدا قبحك الله من كتكوت .

غرافيرو المدهش : أين أذهب ؟ وانت الذي خلقتني ، وعلمتني المهنة ، وتزجيج الحواجب ، لي

---

(٣) – ابراهيم الثاني ص ٧٥ .

البوز ورفس الأرجل ، وترقيص الذيل .

ابراهيم الكاتب : اووه . . انني اكره لغتك هذه ، انها سكاكين ، أما استطيع ان اتخلص منها اووه . . لقد ذكرتني بقصة حذاء ابي القاسم ، فقد قالوا – ولست أدري من هم – ان ابا القاسم أراد ان يتخلص من حذائه ، فرماه في البحر ، اي رمي أبو القاسم الحذاء ، وهذا واضح .

فرافيرو المدهش (يصفق بذيله) : ألم اقل انك لاتستطيع ان تتخلص مني ، ها انت قد عدت الى نوادرك القديمة ولهجتك الحلوة ، أنا احبها فقل ياصديقي ، من هات قديمة . .

فيثور المازني ويتقد غيظا ، ويشب لكي يبطش بفرافيرو ، ويتعاركان ، لولا ان يبدو العقاد في الوقت المناسب – أو هكذا خيل للمازني – فيضحك ضحكة مجلجلة واسعة ، ويرتمي المازني على صدره وهو ينشج ، بينما تثور الرياح وتندفع الرمال ، ويلقي البحر بزبده ، الذي يتفتت ويتكسر تحت اقدامهما ، وينحني فرافيرو لكي يلتقط الاصداف المغسولة والاحجار الزاهية ، ويدسها – وهي تحدث خشخشةً – في جيب بنطلونه الاحمر .

المصادر

ابراهيم الثاني
ابراهيم الكاتب
ثلاثة رجال وامرأة
حصاد الهشيم
خيوط العنكبوت
الديوان
على الماشي
عود على بدء
في الطريق
مختارات من ادب المازني (الدار القومية سنة ١٩٦١)
من النافذة .

خالد محمد خالد

وأزمة الحرية



وقف المسيح مرة في منعطفة من التاريخ امام قرية عاصية ، وجابهها بكلمة ظلت تنتقل من جيل الى جيل ، امام كل عين ترى واذن تسمع ، فان لم يكن هناك من يرى ولا من يسمع اجبره التاريخ على ذلك ، حتى يبربش عينيه وينفض اذنيه ، وكأنه لأول مرة يرى تلك الكلمة ولاول مرة يسمعها ، فيأسى على ما فات ويعض على شفتيه ، ثم يقع في تيه من تعذيب الذات واتهامها بالحمق والغفلة .

قال المسيح مرة لتلك القرية الغافلة : أورشليم ، يا اورشليم ، ياقاتلة الانبياء وراجمة المرسلين ، ها هو ذا بيتك يتحرك للخراب .

ان هذا القول يلخص قصتنا مع خالد محمد خالد .

هذا القلم المرتعش كان يهز القلوب ويشير – وكأنه زرقاء اليمامة – الى هذا الخطر القادم من هناك ، من وراء الاكمة وخلف الاشجار المتحركة . . .

هذا القلم المرتعش والصوت النابض ما باله قد همد أو كاد . . .

ان خالد محمد خالد لم يعد له ذلك النبض القديم المرتعش . فجعل قلمه يتحول . يتحول نحو التاريخ ، فيستخرج من بطون الكتب أوراقا يلقيها الينا في صمت ، وكأنها وثائق تدين ، اكثر مما تعطي وتدمغ اكثر مما تمنح . . .

حقا ، إنه ينفخ في تلك الاوراق من روحه ، وينقب في حروفها عن الجانب الانساني الباقي . . لكن اين ذلك من خالد محمد خالد القديم ، ذلك الذي كان يضع يده على مشكلات المجتمع ، وكأنه الخبار الذي لايخطئ ، يجسها ثم يشخصها ثم يقترح الحلول . ولايكتفي بذلك حتى يبعث في المريض حياة ، ويحركه من داخله ، ويهيب بعناصر المقاومة ان هبي فتهب ، فيتحرك الجسد بقوته الذاتيه ، لابسبب علاج قد وصف وسطر وذُيّل بتوقيع ، بل لان المعالج قد تسلل الى داخله واعاد ترتيب عناصره وصب عليها شيئا من ماء الحياة ، ثم تركها تفور وتتحرك تلقائيا . . .

ذات امسية وفي ليل الريف ، كان أول لقائي معه في كتاب «من هنا نبدأ» فعز النوم ، وسهرت تحت مصباح الغاز حتى انتهيت منه ، ولم يكن سهرا هادئا كهذا الهدوء العميق ، الذي لايقطعه الا نبح كلب او صوت خفير ، بل كان سهرا يفوق ضجيج المدن وقرقعة البحار ، كانت كلماته تنفجر داخلي ، وتثير شظايا تقيمني وتقعدني . وتابعته منذ ذلك الحين . . ولسبب مالم اعد قراءة هذا الكتاب منذ الصبا الباكر . مع انه دائما امامي وأجسه بيدي ، ربما خشية ان يضيع هذا الاثر للرعشة الاولى . . . يقينا لو اعدت قراءته سأختلف معه في الكثير ، وقد لايرضيني تطرف هنا أو اندفاع هناك ، وقد لايستهويني ذلك الهجوم العنيف كالسيل الجارف ، على بعض القيم التي نكن لها كل احترام وتقدير ، كما كان يستهويني ذلك في فترة المراهقة ، التي تكفر بكل شئ تأكيدا للذات . . .

ولكن تبقى حقيقة ، ان الصدق والاخلاص هما وراء كل حماسته واندفاعه ، ان احساس القارئ بالصدق لا يخطئ آه لو عرف الكتاب ان هناك حاسة عند القارئ ، قد لايمكن تحديدها وتسميتها ولكن يقينا تميز بين الصدق والزيف ، مهما كانت براعة اللاعبين وذكاء المتفننين .

وجئت القاهرة وجعلت أبحث عن هذا الكاتب لأراه ، فكان يقال لي انه موظف بوزارة الثقافة . ولكن اين هو ؟ ان المتحدثين لايزيدون على ذلك يلقون الكلمة او الكلمتين ، ثم يأخذون فيما كانوا فيه من الحديث ، أو يهزون الاكتاف اذا لم يكن هناك حديث . فجعلت اكتم احاسيسي واتهم نفسي بالريفية الساذجة والعواطف البدائية . .

• • •

شيء لاتخطئه في كتب خالد محمد خالد مهما تعددت ، وهو الدفاع عن الحرية بمعانيها الواسعة ، لان الحرية هي الخلاص كما يقول ، ولان الله الذي وهبنا الحياة وهبنا معها الحرية في نفس اللحظة ولنفس السبب كما يقول جيفرسون ، في استشهاد كثيرا مايكرره خالد محمد خالد .

يلح على هذا الشيء منذ مقالاته الاولى وحتى كتبه الاخيرة ، بل وفي كل كلمة من كلماته ، ولماذا نعني انفسنا بالاقتباس وعناوين كتبه تغني عن كل اقتباس (مواطنون لا رعايا . . الديمقراطية أبدا . . . الدين للشعب . . . لله والحرية . . . أزمة الحرية في عالمنا . .) .

هذه الكلمة . . كلمة الحرية . . تمثل القرار الاساسي في كل ما كتب . . ولم يكن ذلك عن اختيار ولكنه قدر لامفر منه . . فهو كاتب لايكتفي بالظواهر . ولا يقع على الشيء والشيئين . . انه يستبطن الامور ويبحث عن العلل والجذور لو اقتصر اي اصلاح على الظواهر والسطح لكان قاصرا وجزئيا . . يخدر اكثر مما يوقظ ، ويضلل اكثر مما يهدي . .

ومن ثم هداه قدره الى الشيء الاصيل . . هنا السر في تكرار تلك النغمة في كل مايكتب لانها شيء جوهري لايذهب به العام او العامان بل تبقى وراء كل حقيقة وكل إصلاح يقول في احدى مقدماته واذا كان ما اضيفه للتحيه والشكر . فعهد آخذه على نفسي ان اظل حيث ألفوا رؤيتي . . مع الحقيقة . . ومع الحرية .

ونقول قدره ونقصد المعنى الدرامي لهذه الكلمة ، والذي يلقى مأساة على كرام الناس فقد اندفع خالد محمد خالد بحماسة المخلص وراء الحقيقة . دون ان يتوقف ودون ان يتساءل فكان كالبطل التراجيدي القديم ، والمندفع نحو مأساته دون ان يغني الحذر عن القدر فقد تكالبت قوى الظلام والجهل والاثرة وضيق الافق على خالد محمد خالد . . فجعلته يتخفى عنا ونبحث عنه فلا نلتقي به . . ويغترب نحو كتب التاريخ يبعثها من جديد . . ويوقظ فيها الجانب الانساني ، ويبحث في حروفها عن الضمير . . بعد ان فقده فيمن حوله . .

ومن خلال هذا الشيء الجوهري ، استطاع ان يتسلل الى كل جزئية في المجتمع ويضع يده على كل

مشكلة . مثله مثل كلمة السر تفتح الابواب وتفض المغاليق . . وهو لم يقف عند مفهوم محدد للحرية يحصرها في المعنى السياسي . . فبحث مشكلتها في الحياة ، وفي علاقات الناس داخل البيت . . داخل المدرسة . . في الشارع . . في الامثال . بل في كل كلمة يفوهون بها وفي كل سلوك يسلكونه . . في كتابه (لكي لاتحرثوا في البحر) لم يكتف بفضح التسلط السياسي ، الذي هو اشد على النفوس من الوحوش المفترسة ، كما قال كونفوشيوس . . بل اهتم اكثر بما سماه الاستعمار الداخلي ، وهو يعني بذلك الحجر المضروب ، والوصايا المفروضة علينا في الاسرة وفي المدرسة وفي المجتمع . . يعني الرغبة الراسخة في التسلط والاستعلاء والقاء الاوامر التي يجب ان تتمثل وتطاع . . . وبعبارة موجزة التربية عن طريق القوة ، ودعا بعد ذلك الى الاخلاق التي تقوم على الواجب والاقتناع يريد بذلك ان ننتبه الى الشيء الاصيل حتى نبني على الرمال أو نحرث في البحر . .

* * *

ودعا الى العودة الى منابع الدين الصافية ، من قبل ان تكدرها مصالح المنتفعين ، انه يفصل بين الدين كمحرر للنفوس ، وبين مانسميه الاخلاق التقليدية التي تجرع ضحاياها نوعا من الاستسلام ، يكاد يلاشي من انفسهم كل شعور بالمسؤلية الاخلاقية ، فالدين في جوهرة رقي بالانسان وتنديد بالتقليدية العمياء . . وهو لايعني بالدين معنى ضيقا او متعصبا ، ولايقف عند شكليات تؤدي ، وانما يعني به القيمة التي كان يحرص عليها المرسلون والمصلحون ويخوضون من اجلها حروبا لاتهدأ .

فالدفاع عن الدين دفاع عن القيمة ، كما فهمها سقراط وكونفوسيوش وبوذا وموسى والمسيح ، ومحمد ، وغاندي ، وغيرهم ممن اصطنعتهم الانسانية من ابنائها ، واشربوا روح المساواة والعدالة والكرامة والحرية .

والقيمة هي حجر الزاوية في كل اصلاح ، فليس مهما ان نبني مصانع ، أو نتبنى شعارات . ولكن المهم ان ننطلق من داخلنا ، وان نبعث في انفسنا شرارة القيمة وحب الفضيلة ، وكل شيء بعد ذلك سهل وميسور . . وذلك هو الفهم الحقيقي لاي اصلاح او تغيير ، ان محمدا عليه السلام لم ينطلق خارج الجزيرة العربية ، قبل ان يغرس في نفوس ابنائها القيمة الحقيقية ، ويعلمهم التضحية من اجلها . . ومن ثم انطلقوا بعد مماته يحملون المشعل ، ويؤسسون حضارة تبقى ، لانها تبنى على اساس من القيمة . .

ومن ثم كان اهتمام خالد محمد خالد باصلاح الأزهر ، ليس اهتماما بمعهد علمي او بجامعة عريقة . وانما كان اهتماماً بمعقل يمثل وجدان الامة ، ويمكن ان يشكل نظرتها نحو الحياة . ان الازهر هو رمز بين قوم يلعب الدين دورا رئيساً في حياتهم . . وهنا نفهم سر إلحاح خالد على هذه الفكرة ، وعرضها بطريقة حماسية لاتعرف الحياد ، وباسلوب ناري كطلقات المدافع ، لأنه يعبر عن مشاعر قد طال كتمانها ، وهو في الوقت نفسه يعبر عن حب الازهر لأنه (يحمل للازهر احتراما صادقا ويؤكد بقاء

دوره ، وفي نفس الوقت يحاول ان يضع عن كاهله تلك الاثقال المبهظة التي تنقض ظهره ، وتعتاق سيره» كما يقول .

ان خالد محمد خالد لايكتب بعقله فقط ، وانما يكتب «باعصابه وقلبه ايضاً»[1] كما يقول . ومن ثم نجد في اسلوبه الحيوية ، انه اسلوب يكاد يتحرك ، مليء بعلامات الاستفهام والتعجب ومليء بالنقط ، وكأنه يريد ان يبعث في اللغة حياة وأن يضيف حروفا الى حروفها اسلوب كلسع السياط او لدغ الناموس ، لايترك القارئ في هدوء بل يدفعه الى التململ والتحرك . . ثم البحث عن مخرج . .

* * *

ان خالد محمد خالد كاتب اجتماعي خلقي . . ومن ثم فهو يملأ كتبه بالحكايات وبالتجارب التي رأها ، ويهتم كثيراً بضرب الأمثال من واقع الحياة ومن ذاكرة التاريخ ، انه لايعرض نظريات مجردة ومنقولة من الكتب ، بل انه دائما يضع قلبه – واعني قلمه – على مشكلات المجتمع الذي يعيش فيه ، فيحسها وينبض بها ، ثم يريد أن ينقل هذه الحالة بكل النبض وبكل الاحساس الى القارئ . . وقد أوتي من الحساسية وسعة الافق ما مكنه ان يضع يده على جذور الداء . . لايعنيني انه ينطلق من مفهوم (ليبرالي) أو (راديكالي) او غير ذلك ، بقدر ما يعنيني حساسيته للمشكلات واجتهاده في وضع حلول . . اقل ماتوصف به أنها صادرة عن سعة الافق وتقدير لظروف مجتمعة ، واحساس بروح الجماعة . . ومن ثم فان الكثير مما كتب عنه قبل الثورة ، أحس به المسؤولون ووضعوا له من القوانين ماهو كفيل بالقضاء عليه ، كثيرا ما كنت اقرأ لطه حسين وصفه لشخص ما بانه ذكي القلب وكنت اظن هذا شطحة من شطحاته الأسلوبية ، اما الآن فقد فهمت ان خالد محمد خالد تجسيد حي لهذا الوصف . فهو ذكي القلب نقي العقل .

وقد اوقعته حرارة قلبه ونقاوة عقله في الكثير من المهاوي والهموم ، والاتهامات الجارحة . كان قلبي يخفق وانا اقرأ الردود على مقالاته المنشورة فوق صفحات الجمهورية حقا ان حماسته للفكرة كانت تدفعه الى الغلو . . وحقا ان الكثير من ارائه كانت تحتاج الى تعليق ، وقد أوتي الرجل قدرا من الشجاعة جعله يتراجع عن الكثير من افكاره بنفس متفتحة ولكن العنف لايولد الا العنف ، والاسلوب الهجومي يتبعه اسلوب دفاعي يحمل النبرة نفسها ، ان طريقة المجادلة ينبغي – وكلمة ينبغي تتكرر في قاموس خالد محمد خالد – ان تكون بصورة اخرى ، فالرجل ليس هادما ولا حاقدا ولا موتورا ، ولكنه محب وصريح فلماذا لانغفر للحب اندفاعاته وللصريح شطحاته ، ان الدين لايكره التجديد ، بل انه يمقت الطقوس ويحارب الكهانه . . الم يلق محمد عليه السلام بقلب متفتح وهو يخفف عن اصحابه الذين تسرب الى نفوسهم شيء من الشك «هل جاءكم هذا الشك الحمد لله إنه

(1) – لله . . . وللحرية ص ٩٢ .

صريح الإيمان، ومن قبل ذلك قال السيد المسيح – وتلك اقتباسات عرفتها من خالد محمد خالد[1]:
انما جعل السبت من اجل الانسان ، ولم يجعل الانسان من اجل السبت .

---

(١) – أزمة الحرية ص ١٥ .
الحديث المروي هنا معناه وليس لفظه . إذ لم يرد حديث للرسول عليه الصلاة والسلام .

المصادر

أزمة الحرية في عالمنا
انسانيات محمد
الديمقراطية . . . أبدا
الدين للشعب
لكي لاتحرثوا في البحر
لله . . . والحرية
معا على الطريق . . محمد والمسيح
من هنا نبدأ
مواطنون . . . . لا رعايا
هذا . . . أو الطوفان

ملحق

تعريف بهؤلاء الأدباء

طه حسين

* ولد في فبراير سنة ١٨٨٩ بعزبة الكيلو بمحافظة المنيا بالصعيد ، وفقد بصره وهو في السادسة من عمره .
* سافر سنة ١٩٠٢ الى القاهرة لكي يلتحق بالأزهر، وفي هذا العام توفي اخوه الطالب بجرثومة الطب ، والذي ذكره في الجزء الاول من الأيام .
* اتصل سنة ١٩٠٨ بالجامعة الاهلية .
* ناقش سنة ١٩١٤ رسالته الأولى للدكتوراه ، وكانت عن أبي العلا المعري ، وفي هذا العام سافر الى فرنسا وقد نشر هذه الرسالة سنة ١٩١٥ .
* تزوج سنة ١٩١٧ من قرينته سوزان ، وفي العام نفسه حصل على الليسانس من السربون
* حصل سنة ١٩١٨ على الدكتوراه من فرنسا وكانت عن ابن خلدون .
* عاد سنة ١٩١٩ من بعثته الى مصر
* وكان يكتب من سنة ١٩٢٢ الى سنة ١٩٤٢ كل اربعاء في الصحف ، وقد ظهر الجزء الاول من حديث الاربعاء سنة ١٩٢٥ .
* ونشر سنة ١٩٢٦ كتابا عن الشعر الجاهلي ، وفي العام نفسه بدأ ينشر «الايام» في مجلة الهلال .
* عين سنة ١٩٢٨ عميدا لكلية الآداب .
* ظهر سنة ١٩٢٩ الجزء الأول من الايام
* ظهر سنة ١٩٣٢ كتابه في الصيف
* ظهر سنة ١٩٣٤ كتابه أديب
* ظهر سنة ١٩٣٦ كتابه «مع المتنبي» وفي العام نفسه اشترك مع توفيق الحكيم في تأليف كتاب القصر المسحور .
* وظهر سنة ١٩٣٨ كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» .
* وبدأ سنة ١٩٣٩ ينشر في الصحف مقالاته «المعذبون في الارض» .
* وظهر سنة ١٩٤٠ الجزء الثاني من الايام .
* وظهر سنة ١٩٤١ كتابه دعاء الكروان .
* عين سنة ١٩٤٢ مستشارا فنيا لوزارة المعارف ، وفي هذا العام عين مديرا لجامعة الاسكندرية .
* ظهر سنة ١٩٤٣ كتابه أحلام شهرزاد .
* كتب سنة ١٩٤٤ كتابه شجرة البؤس .
* اختير سنة ١٩٥٠ ليكون وزيرا للمعارف .
* أقيلت الوزارة سنة ١٩٥٢ عقب حريق القاهرة .
* ظهر سنة ١٩٧٢ الجزء الثالث من الايام .
* توفي الى رحمة الله في ٢٨ من اكتوبر سنة ١٩٧٣ .

وعنه راجع :

مع طه حسين	للاستاذ سامي الكيالي
طه حسين واثر الثقافة الفرنسية في أدبه	للاب كمال قلته
دراسات في الرواية المصرية	د . علي الراعي
دراسات في الشعر والمسرح	د . مصطفى صادق الرافعي
القصة المصرية وصورة المجتمع الحديث	د . عبدالحميد ابراهيم
محمد في الأدب المعاصر	فاروق خورشيد
محمد وهؤلاء	أحمد عبدالمعطي حجازي
من فنون الادب العربي	د . مصطفى الشكعة
نظرية الانتحال في الشعر الجاهلي	عبدالحميد مسلوت
تجارب في الاداب والنقد	د .شكري محمد عياد
قيم أدبية	د . نعمات احمد فؤاد
النثر الأدبي الحديث	د . احمد كمال زكي
غرام الادباء	عباس خضر
مقومات القصة العربية الحديثة	د . محمود حامد شوكت
نقض كتاب في الشعر الجاهلي	محمد الخضر حسين
الريف في القصة المصرية	د . محمد حسن عبدالله
النقد التحليلي لكتاب الادب الجاهلي	محمد احمد الغمراوي
الفلاح في الأدب العربي	محمد عبدالغني حسن
الفنون الأدبية وأنواعها	للاستاذ انيس المقدسي
الادب العربي المعاصر في مصر	د . شوقي ضيف
الشهاب الراصد	محمد لطفي جمعة
عصور ورجال	فتحي رضوان
شعاع من طه حسين	ثروت اباظة
الى طه حسين في عيد ميلاده السبعين	مجموعة من الدراسات اشرف علي نشرها د . عبدالرحمن بدوي .
مجلة الثقافة (ديسمبر سنة ١٩٧٣)	عدد خاص عن طه حسين
مجلة الثقافة (نوفمبر سنة ١٩٧٤)	بها قسم خاص عن طه حسين لمرور عام على وفاته .
مجلة القصة (يناير سنة ١٩٦٤)	مقال فن القصة عن طه حسين للدكتور حسين نصار .

* ولد في ٢٨ من يونية سنة ١٨٨٩ بمدينة أسوان ، ولاسرة مصرية فقيرة ، فقد كان ابوه امينا للمحفوظات ، وكان جده الاعلى يشتغل بمصنع حرير بدمياط فلقب بالعقاد ، أما امه فقد
* كانت حفيدة لاحد رجال الفرقة الكردية ، التي توجه بها محمد علي الى السودان حوالي سنة ١٨٢١ لتاديب ملك شندي على عصيانه .

ألحقه أبوه وهو في سن السابعة بالمدرسة الابتدائية .
* كان ابوه يصحبه في زياراته لمجلس الاديب القاضي الشيخ احم الجداوي ، أحد فضلاء الأزهر ، بين الذين لزموا دروس جمال الدين الافغاني ، اثناء مقامه بالقاهرة ، وكان يسمع الحديث عن عبدالله النديم وعن الامام محمد عبده .
* اتقن اللغة الانكليزية وهو في المدرسة الابتدائية ، وتخرج في المدرسة سنة ١٩٠٣ ، وبقي مدة بدون عمل ، فتطوع بالتعليم في المدرسة الخيرية الاسلامية ببلدته .
* استطاع أبوه ان يوظفه باربعة جنيهات ، بالقسم المالي في مدينة قنا ، وحضر سنة ١٩٠٥ الى القاهرة لاجراء الكشف الطبي ، حيث التقى بالدكتور يعقوب صروف ، صاحب المقتطف .
* وفي السنة نفسها نقل الى الزقازيق ، فتتكرر زيارته الى القاهرة ، ليشهد التمثيل ويشتري الكتب .
* واستقال من وظيفته سنة ١٩٠٦ ، والتحق بمدرسة الفنون والصنائع ، ثم تركها واشتغل في مصلحة البرق «التلغراف» بالقاهرة ، ويمضي فيها ستة أشهر ، واتجه بعدها الى الصحافة .
* توفي أبوه سنة ١٩٠٧ ، وفي العام نفسه يشترك مع محمد فريد وجدي ، في اصدار صحيفة الدستور ، نظير ستة جنيهات شهريا ، ولكن الصحيفة لا تفي بمصروفاتها فتغلق نهائيا .
* ويصبح العقاد بدون عمل ، فيضطر الى بيع كتبه والى اعطاء الدروس الخصوصية ، ولكن الضيق يزداد به حتى لا يستطيع دفع ايجار مسكنه . فبارح القاهرة الى بلدته وسقط فريسة المرض لمدة عامين .
* وحين يسترد عافيته يعود الى القاهرة ، ويعيش مما يرسله اليه اهله ، ومن المقالات التي كان ينشرها في مجلة البيان ، التي كان يصدرها منذ سنة ١٩١١ عبدالرحمن الرقوقي .
* يسمع عنه محمد المويلحي ، وكان مديرا بديوان الأوقاف ، فيعينه سنة ١٩١٢ بقلم السكرتارية ، وكان الديوان حينذاك يغص بكثير من الادباء ، امثال عبدالعزيز البشري وعبدالحليم المصري ، واحمد الكاشف ، ومحمود عماد ، ومصطفى الماحي ، فاخذ يختلط بهم وسرعان ما نراه ينشر خلاصة اليومية .
* ترك الديوان ، وعمل محرراً أدبيا في صحيفة المؤيد ، ولكنه استقال منها سنة ١٩١٤ .

* واخذ يكتب في الصحافة حتى قامت ثورة سنة ١٩١٩ ، فمضي يكتب المقالات الوطنية ويفضح المستعمر واذنانه ، وكان يقف مع الوفد ، وقد وصفه سعد زغلول ، بانه كاتب جبار المنطق .
* ويقدم سنة ١٩٣٠ للمحاكمة بتهمة العيب في الذات الملكية ، فيحكم عليه بالسجن لمدة تسعة اشهر .
* عين سنة ١٩٣٨ عضوا بالمجمع اللغوي .
* عين سنة ١٩٥٦ عضوا بالمجلس الاعلى لرعاية الفنون والأداب ، ويظل منذ عين فيه مقررا للجنة الشعر .
* توفي يوم ١٣ مارس سنة ١٩٦٤ .

واهم كتبه :

ساعات بين الكتب ١٩٢٩
شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ١٩٣٧
عبقرية محمد ١٩٤٢
الفلسفة القرآنية ١٩٤٧
ابليس ١٩٥٥
التعريف بشكسبير ٥٨
الانسان في القران الكريم ١٩٦١
سعد زغلول ١٩٣٦
هتلر في الميزان ١٩٤٠
اثر العرب في الحضارة الاوربية ٤٦
أبو الانبياء ١٩٥٣
الاسلام والاستعمار ١٩٥٧
اللغة الشاعرة ١٩٦٠

وعنه وعن أعماله راجع :

مع العقاد	د . شوقي ضيف
نظرات في فكر العقاد .	د . عثمان أمين
الجوانية	د . عثمان أمين
محمد في الأدب المعاصر	فاروق خورشيد
دراسات في الشعر العربي المعاصر	د . شوقي ضيف
ثقافة الناقد الادبي	د . محمد النويهي
قيم أدبية	د . نعمات احمد فؤاد
النزعة الانسانية في شعر العقاد	د . عبدالحي دياب
صراع الاجيال في الادب المعاصر	غالي شكري
عصاميون عظماء	مجموعة
عبقرية العقاد	د . عبدالفتاح الديدي

توفيق الحكيم

* ولد سنة ١٩٠٢ وكان والده يعمل في القضاء ، فادخله كلية الحقوق ليعمل في وظيفة كبيرة في وزارة العدل .
* وصفه يحيى حقي في كتابه «خطوات في النقد» وهو في السنة النهائية في كلية الحقوق وكانا متجاورين في الفصل فقال عنه «شاب نحيل نحيف أصفر الوجه ، بارز العينين ، صموت على رأسه اقصر طربوش في الفصل .
* سافر الى باريس على نفقة والده بعد التخرج في كلية الحقوق ليحصل على الدكتوراه في القانون ، وهناك اكب على الثقافة وعلى الفنون ، وشاهد المسرحيات وانغمس في شئون الحضارة . وعن هذه الفترة راجع من كتبه وبنوع خاص : زهرة العمر ، عصفور من الشرق .
* عاد من باريس ليعمل نائبا في ارياف طنطا ، وقد أمدته هذه الفترة بخبرة عملية عن اوضاع الفلاح المصري يظهر اثرها في كتبه : يوميات نائب في الارياف ، من ذكريات الفن والقضاء ، عودة الروح .
* وجد نفسه في المسرحيات الذهنية وادارة الحوار والاعمال الفكرية ، وقد قال عن نفسه في كتابة «سجن العمر» : اني في اغلب احوالي قاعد هامد في حوار دائم مع نفسي ، في حركة دائمة
* داخل عقلي افك الكون واركبه .

ومن هنا كانت أعظم اعماله تتمثل في مسرحياته الذهنية ، التي احدثت نقلة في تاريخ الفكر العربي ، وقد ترجم الكثير من هذه المسرحيات الى اللغات الانكليزية والفرنسية والروسية والاسبانية ، وغير ذلك من اللغات العالمية الحية .

من اهم كتبه :

اهل الكهف ١٩٣٣
براكسا أو مشكلة الحكم ١٩٣٩
سليمان الحكيم ١٩٤٣
التعادلية ١٩٥٥
الطعام لكل فم ١٩٦٣

شهر زاد سنة ١٩٣٤
بجماليون ١٩٤٢
الأيدي الناعمة ١٩٥٤
يا طالع الشجرة ١٩٦٢

وعنه وعن أعماله راجع :

فجر القصة	يحيى حقي
خطوات في النقد	يحيى حقي
مسرح توفيق الحكيم	محمد مندور
توفيق الحكيم	د. اسماعيل ادهم ود. ابراهيم ناجي
الثقافة المصرية	محمود امين العالم ود. عبدالعظيم أنيس
دراسات في ادبنا الحديث	د. لويس عوض
من عالم المسرح	نبيل الالفي
مقالات في النقد الادبي	د. محمد مصطفى هدارة
دراسات في الادب العربي المعاصر	يوسف الشاروني
الفن المسرحي في الادب العربي الحديث	د. محمود حامد شوكت
في النقد المسرحي	فؤاد دوارة
قضايا جديدة في ادبنا المعاصر	د. محمد مندور
ثورة المعتزل	غالي شكري
مجلة الهلال فبراير سنة ١٩٦٨	عدد خاص
مجلة الثقافة ١٩٦٥/١/١٨	مقال ورحلة الحكيم د. عبدالحميد ابراهيم
مجلة الثقافة اغسطس ١٩٧٤	الحكيم والراهب الذي ينتظر البشارة
توفيق الحكيم فنان الفرجة	د. عبدالحميد ابراهيم
في الادب المصري المعاصر	د. علي الراعي
مصر بين الاحتلال والثورة	د. عبدالقادر القط
عشرة ادباء يتحدثون	صلاح الدين ذهني
الحكيم بخيلا	فؤاد دوارة
	كمال الملاخ

يحيى حقي

* قدم جده من المورة الى مصر في أوائل القرن التاسع عشر.
* التحق والده بالازهر الشريف عدة سنوات ، ثم انتقل للدراسة بمدرسة فرنسية ، ثم تركها ليعمل بوزارة الاوقاف.
* ولد في ٧ من يناير سنة ١٩٠٥ بحارة الميضة ، وراء مقام السيدة زينب ، في بيت ضئيل من املاك وزارة الاوقاف.
* بدأ تعليمه في كتاب السيدة زينب ، ثم التحق بمدرسة والده عباس ، وكانت مدرسة مجانية من أوقاف الهادي باشا.
* حصل على الشهادة الابتدائية سنة ١٩١٧ ، والتحق بالمدرسة الالهامية الثانوية فالسعيدية فالخديوية ، ومنها حصل على البكالوريا سنة ١٩٢١.
* التحق بمدرسة الحقوق العليا.

وفي اول يناير سنة ١٩٢٧ ، تسلم عمله الجديد معاونا للادارة بمركز منفلوط «حيث قضيت اهم سنتين في حياتي على الاطلاق» كما يقول.

* اعلنت وزارة الخارجية عن مسابقة للتعيين ، بوظائف امناء المحفوظات في القنصليات والمفوضيات ، فتقدم للمسابقة ونجح.
* عين أمينا لمحفوظات القنصلية المصرية في جدة ، وظل يعمل بها حتى سنة ١٩٣٠.
* نقل من جدة الى استانبول سنة ١٩٣٠ ، وظل بها أربع سنوات.
* نقل من استانبول الى روما ، وظل بها حتى سنة ١٩٣٩.
* في سنة ١٩٤٢ تزوج كريمة عبداللطيف سعودي المحامي ، وعضو مجلس النواب عن الفيوم ، وسرعان ما توفيت بعد ان انجبت له وحيدته نهى.
* نقل سنة ١٩٤٩ سكرتير اول للسفارة المصرية في باريس ، وهناك التقى بزوجته الثانية جان ميري ، وكانت رسامة فتزوجها سنة ١٩٥٤.
* في سنة ١٩٥٥ انشأ مصلحة الفنون بوزارة الارشاد القومي.
* في سنة ١٩٥٨ عين مستشارا لدار الكتب. وفي السنة نفسها استقال من الحكومة.
* في سنة ١٩٦٢ وحتى سنة ١٩٧٠ تولى رئاسة تحرير مجلة المجلة.

أهم مؤلفاته :

ام العواجز (١٩٥٥)
عليها على الله ١٩٥٦
صح النوم ١٩٥٩
خطوات في النقد ١٩٦٠
عنتر وجولييت ١٩٦٠
حقيبة في يد مسافر ١٩٧٠
ياليل يا عين ١٩٧٢
انشودة البساطة ١٩٧٣

أهم ترجماته :

العصفور الأزرق لموريس مترلنك ١٩٦٦
القاهرة لدزموند ستيوارت سنة ١٩٦٩
الاب الضليل لاديث سوئدر ١٩٧٠
البلطة لميخائيل سادوفيانور ١٩٧٢

أهم ما كتب عنه :

نقد واصلاح (١٩٦٠)	د. طه حسين
دراسات في الرواية المصرية (١٩٦٤) .	علي الراعي
قيم ادبية (١٩٦٦)	د. نعمات احمد فؤاد .
دراسات في الرواية المصرية والقصص القصيرة (سنة ١٩٦٧)	يوسف الشاروني .
تطور القصة القصيرة في مصر (١٩٦٨)	د. سيد حامد النساج .
يحيى حقي مبدعا وناقدا (١٩٧٠)	مصطفى ابراهيم .
الادب وتجربة العبث (١٩٧٣)	عبدالحميد ابراهيم
مجلة الثقافة (يناير ١٩٧٥)	عدد خاص .
مجلة المجلة اغسطس (سنة ١٩٧١) مقال القصة القصيرة بين الاقليمية والتاريخية	د. عبدالحميد ابراهيم .

سلامة موسى

* ولد سنة ١٨٨٨ في احدى قرى محافظة الشرقية حيث تلقى تعليمه الأول .
* واصل دراسته الثانوية بالقاهرة حتى حصل على البكالوريا .
* في تلك الفترة تعرف وتتلمذ على افكار شبلي شميل ويعقوب صروف وفرح انطون ولطفي السيد .
* سافر سنة ١٩٠٦ الى باريس ولندن ، وقد مكث في انكلترا فترة طويلة تعرف خلالها على
* برناردشو وانضم الى الجمعية الفابية .
* اصدر سنة ١٩٠٩ كتابه الاول «مقدمة السبرمان» وقد تضمن البذور الاولى لتفكيره في التطور والنزعة العلمية والاعجاب بالحضارة الاوربية .
* اهتم بالحضارة الفرعونية ، والف كتابه «مصر اصل الحضارة» وقد كتب عن البيوت سميث كواحد من اساتذته في كتابه «هؤلاء علموني» لأنه كتب عن الحضارة المصرية القديمة واثبت أن مصر هي اصل الحضارة القديمة .
* اصدر سنة ١٩١٣ كتابه عن الاشتراكية ، واشترك سنة ١٩٢١ في تأسيس الحزب الاشتراكي .
* ترأس تحرير مجلة الهلال من سنة ١٩٢٢ الى سنة ١٩٢٩ ، حين قرر ان يصدر مجلته الشهرية «المجلة الجديدة» التس استمرت في الصدور المتقطع عشر سنوات ، فقد كانت الحكومات تعطلها عن الصدور ، وكان يتحايل على ذلك باستشجار مجلات اخرى ، مثل المصري والنجمة الزهراء .
* اسس سنة ١٩٣٠ جمعية المصري للمصري ، محاكياً دعوة غاندي الى مقاطعة البضائع الاجنبية .
* ظل يعمل في الصحافة وفي التأليف حتى توفي في اغسطس سنة ١٩٥٨ .

أهم كتبه

تربية سلامه موسى
هؤلاء علموني
التثقيف الذاتي
البلاغة العصرية واللغة العربية ، برنارد شو
نظرية التطور
عقلي وعقلك
محاولات سيكلوجية
الادب للشعب
الصحافة حرفة ورسالة

وعنه راجع :

المنتمي	غالي شكري
سلامه موسى	محمود شرقاوي
فلسفة الفن والفكر المعاصر	د. زكريا ابراهيم
مجلة الكاتب اغسطس ١٩٦٢	بها قسم خاص عن سلامه موسى .

المازني

* ولد ابراهيم عبدالقادر المازني ، في مدينة القاهرة سنة ١٨٨٩ من اسرة عربية الاصل وتنتمي الى قبيلة بني مازن ، وقد نشأ في بيئة دينية فقد كان ابوه يعمل محاميا شرعيا ، كما كان خاله من رجال الدين .
* توفي أبوه وهو صبي فذاق مرارة اليتم ، وكافحت أمه حتى ادخلته كلية الطب ، ولكنه انصرف عنها ، ولم يحتمل منظر الجثث والتشريح ، فدخل مدرسة المعلمين العليا وتخرج فيها مدرسا سنة ١٩٠٩ .
* مارس مهنة التدريس بعد التخرج لمدة عشر سنوات ، ثم هجرها الى الصحافة والتاليف والترجمة ، حتى وفاته سنة ١٩٤٩ .
* كان ضئيل الجسم قصير القامة ، وقد أصيب بعرج خفيف اثناء حادث وقع له .
* اهتم بالقصة والرواية واهم اعماله في ذلك : ابراهيم الكاتب ، ابراهيم الثاني ، ثلاثة رجال وامرأة ، عود على بدء ، على الماشي ، في الطريق .
* مارس الشعر فترة ثم هجره وقد اخرج ديوانه سنة ١٩١٣ ، واشترك مع العقاد وعبدالرحمن
* شكري في تأسيس مدرسة الديوان ، التي كانت تهاجم شوقي ، ثم لم يلبث ان هاجم مع العقاد شكري .

أهم كتبه :

حصاد الهشيم
خيوط العنكبوت
قبض الريح
صندوق الدنيا
الديوان
من النافذة

وعن اعماله وعنه راجع :

ابراهيم عبدالقادر المازني	د . محمد مندور
أدب المازني	نعمات احمد فؤاد
أصوات العصر	صلاح عبدالصبور
القصة المصرية وصورة المجتمع الحديث	د . عبدالحميد ابراهيم
مجلة الكاتب (سبتمبر سنة ١٩٦٢)	قسم خاص .

* من علماء الأزهر الشريف الذين احترفوا الكتابة والتأليف .
* كان يدعو في كتاباته الى الحرية ، ويقف ضد الاستغلال والكهانة وعبودية المرأة .
* صدر أول نتاج له سنة ١٩٥٠ ، وهو كتابه «من هنا نبدأ» . ولكن النيابة اصدرت امر بها بمصادرة الكتاب ، لان مؤلفه تعدى على الدين الاسلامي ، ودعا الى تغيير النظم الاسلامية للهيئة الاجتماعية بالقوة ، وحرض على بعض طائفة الرأسماليين ، تحريضا من شأنه تكدير السلم العام ، فجمع البوليس نسخ الكتاب من الأسواق والمكتبات .
* ولكن محكمة القاهرة الابتدائية نظرت في القضية ، وأصدرت حكمها بالغاء المصادرة والافراج عن الكتاب فتداولته الايدي .
* اخذ يكتب في الصحافة ، ويدعو الى تغيير النظم والعادات ويشخص الكثير من الامراض الاجتماعية ، التي كانت سائدة قبل قيام الثورة سنة ١٩٥٢ ، وكانت تنشر مقالاته في الاهرام وروز اليوسف ، وبنت النيل ، والشعب الجديد ، ومصر الفتاة وغير ذلك من الصحف .
* وقد جمع كثيرا من هذه المقالات في كتابه «الله .. والحرية» ثلاثة أجزاء .
* وبعد الثورة اخذ يكتب في صحيفة الجمهورية بنوع خاص ، وفيها نشر خطابات مفتوحة الى شيخ الازهر .

أهم كتبه :

مواطنون لا رعايا
الديمقراطية أبدا
هذا أو الطوفان
الدين للشعب
الحكار في القمة
انسانيات محمد
بين يدي عمر
رجال حول الرسول .

الفهرست

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ١٠٦٧ لسنة ١٩٨٦

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة